للناشئين والشباب

روائع الأدب العالمي 9

في كبسولة

عرض وتبسيط: حمدي عباس

- مرتفعات وذرنج
- مسرحية ماوراء الأفق
- بعيدًا عن الحشد المجنون
- ذهب مع الريح
- إيما
- مسرحية زوج مثالي
- مسرحية يوليوس قيصر



مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي في كبسولة 9

مما لاجدال فيه أن هناك أعمالاً أدبية رائعة.. تجاوزت حدود مؤلفها وحدود بيئته والمكان والزمان.. تقبل أن تكون ما اتَّفقَ عليه التلقي الإنساني بوضعها في كوكبة " روائع الأدب العالمي في كبسولة ".. كمحاولة متواضعة لوضع ذلك الرصيد الهائل من التجارب الإنسانية الأدبية أمام الأجيال القادمة لتستلهم منها القيمة والتجربة..

وهذا الجزء يضم أربع قصص وثلاث مسرحيات .. تأتي في البداية "مرتفعات وذرنج" لإميلي برونتي، حيث تتناول صراع المشاعر والمادة، وتليها مسرحية " ماوراء الأفق " لأوجين أونيل لترسخ لفكرة الأمل والأحلام في تشكيل مستقبل الإنسان، أما قصة "بعيداً عن الحشد المجنون " لتوماس هاردي، فهي تركز على فكرة التواؤم مع المجتمع المحيط، وكيف يقابله صراع البحث عن الأفضل .. وتأتي " ذهب مع الريح " لمؤلفتها مارجريت ميشيل لتؤكد قيمة الانتماء إلى الأرض لتشكيل أساس حياة الإنسان .. بينما تأتي قصة " إيما " لجين أوستن مؤكدة قيمة التوافق والاختلاف في تشكيل حياة شابة تبحث عن الأفضل النسبي، وليس الأفضل المطلق .. ويختتم الجزء بمسرحيتين رائعتين : أولاهما " زوج مثالي " لأوسكار وايلد، الزاخرة بتلك التناقضات التي تتشكل منها حياتنا، وثانيتهما " يوليوس قيصر " لوليام شيكسبير، الزاخرة بعبق التاريخ وروعة الصراع الإنساني حين ينتصر للخير..





مكتبة الدار العربية للكتاب

روائع الأدب العالمي 9

في كبسولة

عباس ، حمدي .

روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) / عرض وتبسيط حمدي عباس

. ـ ط1 ـ القاهرة : مكتبة الدار العربية للكتاب ، 2008 .

192 ص ؛21 سم . (روائع الأدب العالمي في كبسولة للناشئين والشباب ؛ 9)

تدمك : 977-293-623-2

1 - الأدب - مجموعات .

أ ـ عباس ، حمدي (عرض وتبسيط) .

ب ـ السلسلة . 808.8



مكتبة الدار العربية للكتاب

16 عبد الخالق ثروت القاهرة .

تليفون: 23910250 202 +

فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022

E-mail:info@almasriah.com

www.almasriah.com

رقم الإيداع : 21790 / 2008

الطبعة الأولى : شوال 1430هـ ـ سبتمبر 2009م .

للناشئين والشباب

9

روائع الأدب العالمي

في كبسولة

عرض وتبسيط : حمدي عباس

- مرتفعات وذرنج
- مسرحية ما وراء الأفق
- بعيدًا عن الحشد المجنون
- ذهب مع الريح
- إيما
- مسرحية زوج مثالي
- مسرحية يوليوس قيصر

مكتبة الدار العربية للكتاب

المحتويات

إميلي برونتي

Emily Bronte

مرتفعات وذرنج

Wuthering Heights

تدور أحداث هذه القصة في عام 1801 ؛ حيث يروي السيد لوك وود كيف أنه عاد لتوه من زيارة لمالك بيته الجديد السيد هيثكليف ؛ حيث استأجره منه لوك وود ليبتعد عن المجتمع بعد فشله في قصة حب . والبيت يقع في قرية صغيرة اسمها ثرشكروس جرينج ، وهي منطقة معزولة . كان لوك وود قد أحب امرأة رائعة الجمال . وحين شعرت هي بمشاعره بادلته الحب ، فإذا به ينبذها ويبتعد بقسوة ، وقد ظن أن هذا التصرف يمكن أن يكون شبيهًا بتصرفات هيثكليف ، رغم أنه أكثر اجتماعية منه . كان هيثكليف يشبه الغجر في لون بشرته .. أما في سلوكه وملبسه فكان « چنتلمان » حقيقيًا ؛ لذلك عامله هيثكليف بحد أدنى من الصداقة .. أما مزرعة « مرتفعات وذرنج » فكانت بالنسبة له مكانًا غريبًا وغير ودود .

كانت عبارة وذرنج تعني في ذلك الوقت المكان العاصف ونهب الريح، وكانت الكلاب ذات النظرات الشرسة تجول في غرف هذا البيت العتيق الطراز ، وقد حاولت الاعتداء على السيد لوك وود ؛ فاستغاث بالسيد هيثكليف الذي ادعى أن الكلاب ربما هجمت عليه عندما رأته يسرق شيئًا ما . أما سكان «مرتفعات وذرنج» فكانا فقط الخادم العجوز جوزيف وطاهيه ، ورغم جفاء وغلظة هيثكليف إلا أن لوك وود وجد نفسه منجذبًا نحوه ، وكان يصفه بالذكاء والتكبر والمزاج النكد مثل فلاح

مكروه ، وعلى الرغم من ذلك فقد أعلن لوك وود أنه ينوى زيارة «مرتفعات وذرنج» مرة أخرى في العام 1801 .

ولضيقه بأسلوب الحياة في جرينج يقرر لوك وود زيارة وذرنج مرة أخرى ، ويصلها فعلاً وقد بدأت الثلوج تتساقط . كان الجو قارس البرودة وقد تجمدت الأرض ، وكان هذا الاستقبال بعيدًا عن قسوة الحياة بجوار المستنقعات ، وحين طرق الباب استقبله الخادم جوزيف وقاده إلى داخل البيت . كان المطبخ يشع دفئًا ، ووقفت بداخله فتاة جميلة ، اعتقد لوك وود أنها لابد زوجة هيثكليف، وحاول أن يجري حوارًا معها لكنها أظهرت امتعاضها وعدم ترحيبها به مما أدى إلى إحراجه ، وكان في عينيها تعبير عن اليأس . ورفضت حتى أن تقدم إليه الشاي ما لم يأمرها هيثكليف بذلك . وقد عامله الشاب هيثكليف بجفاء وغلظة لأنه لم يسترح لنظراته إليها ، ولكنه أمرها - بأسلوب فظ - أن تعد له قدحًا من الشاي . عندئذٍ أحس لوك وود أنه لا يحبه وأنه قد أحرج نفسه مرتين حين حاول معاودة الحوار معها . أولاً لظنه أن الفتاة زوجة هيثكليف ، ثم لأنها متزوجة من الشاب المفروض أنه ابن هيثكليف ، وكانت الحقيقة أن الفتاة هي زوجة ابن هيثكليف المتوفي ، كما توفيت أيضًا زوجة هيثكليف ، وكان الشاب هو هارتون إيرن شو .

شعر لوك وود بالضيق والحرج . ازداد تساقط الثلج فطلب لوك وود أن يقوم أحد بتوصيله إلى بيته ، لكن قوبل طلبه بالرفض ؛ والتفت هيثكليف ناحية هارتون وأمره برعاية الخيل . أثناء ذلك تحاور جوزيف المتعصب دينيًّا مع الفتاة التي حاولت الظهور معه بمظهر الساحرة ، لم يكن الخادم العجوز يحب ما تقرأه هـذه الفتاة من كتب ، وحين أحسّ لوك وود أن

أحدًا لا يـــهتم به على الإطـــلاق ولا يعـــيره التـــفاتًا، حاول البحث عن مصباح ، لكنه فوجئ باتهام جوزيف له بسرقة هذا المصباح ، ثم يطلق عليه الكلاب .

أحس لوك وود بالإهانة بينما وقف هيثكليف وهارتون يضحكان . ولم يصطحبه إلا الطاهية زيلا التي عرضت عليه المبيت في هذا البيت ، وببساطة اصطحـــبته زيـــلا إلى غرفة وقـــالت له إن هيثكليـــف لا يحب أن يشغل أحد هذه الغرفة . ولم تجد سببًا لذلك لأنها لم تعمل هناك إلا منذ سنوات قليلة . وحين تركته وحده في الغرفة وقف لوك وود يتأمل المكان ، فلاحظ وجود أسماء كاثرين لينتون و كاثرين هيثكليف منقوشة عند حافة النافذة . بعد ذلك قام بتصفح بعض الكتب القديمة ولاحظ أن الهوامش مليئة بكتابات بخط يد الصغيرة كاثرين وكأنها مذكراتها . فقام بقراءة بعض الكتابات التي ترجع إلى الوقت الذي كانت تلهو فيه ببراءة مع هيثكليف كأخت وأخيها ، فى الوقت الذى كان جوزيف المتعصب يفرض آرائه عليها ، وكذلك فعل أخوها الكبير هندلي .

من الواضح أن هيثكليف كان فتى متشردًا ، تولى أبو كاثرين رعايته واعتبره فردًا من العائلة . لكن حين مات الأب جعله هندلي خادمًا وهدده بالطرد من البيت مما أثار أحزان كاثرين . وسرعان ما استسلم لوك وود لنوم سريع فوق أحد الكتب.. فهاجمه كابوس رأى فيه أحد المتعصبين يقود مظاهرة ، ثم استيقظ على صوت كان قد سمعه في حلمه كأنه قادم حقيقة من خارج النافذة ليتخلص من فرع الشجرة هذا ، ولكنه حين فعل ذلك فوجئ بيد صغيرة باردة تمسك بذراعيه ثم أنصت لصوت فتاة تتوسل

إليه : أدخلني إلى هذه الغرفة فسألها : من أنتِ ؟ فأجابت : أنا كاثرين لينتون .. لقد ضللت طريقي إلى المستنقعات . وهائنذا أعود أخيرًا إلى بيتي .. لقد رأى وجه طفلة فقام بدفعه بقوة ، الأمر الذي أدمى يديه من أثر الزجاج المكسور . وتناثر الدم على ملاءات السرير . حتى نجح في إبعاد هذا المخلوق وتحرر منه برغم أن هذا المخلوق قال إنه ضل الطريق منذ عشرين سنة ، وكان هذا حقيقيًا . عندئذٍ استيقظ لوك من نومه فزعًا !

دخل هيثكليف الغرفة مضطربًا ومشوشًا وغير مبال لوجود لوك وود . فحكى له لوك وود كل ما رآه في الحلم كما ذكر اسم كاثرين لينتون ؛ مما أغضبه . ذهب لوك وود إلى المطبخ ، لكنه سمع صوت هيثكليف عند النافذة يرجو كاثرين (كاثي) أن تدخل . شعر لوك وود بارتباك وحيرة للغضب الذي انتاب مضيفه .

عندما حل الصباح ، سمع لوك وود حوارًا بين هيثكليف والفتاة التي كانت مستغرقة في القراءة ، كان يجذبها بشراسة وكانت تقاومه في جرأة . فأجبر هيثكليف ضيفه لوك وود أن يعود إلى بيته على الرغم من أن الثلوج الشديدة قد غطت الطريق إليه ، وكان عليه أن يخوض فيها مرغمًا . أصيب لوك وود بحالة من الضيق والضعف بعد هذه المغامرة، فطلب من مديرة منزله إيلين دين أن تزوده بمعلومات عن تاريخ هيثكليف وكل العائلات القديمة في المنطقة فأخبرته أن هيثكليف رجل ثري ولكنه بخيل ، رغم أنه ما عاد يمتلك سروجًا خاصة بعد موت أبيه.. أما تلك الفتاة التي تعيش في «مرتفعات وذرنج» فهي من عائلة لينتون واسمها كاثرين أو كاثي وهي ابنة المرحومة كاثرين لينتون المولودة في إيرن شو وهي كذلك عمة هاريتون وقد تزوج هيثكليف من شقيقة السيد لينتون . وأبدت إيلين إعجابها بكاثرين

الصغيرة وهي قلقة بشأن وضعها خاصةً عندما كانت في ليفربول مع السيد إيرن شو وابنه هندلي الذي كان عمره آنذاك أربعة عشر عامًا . وكانت هي في السادسة .

عرض إيرن شو عليهما شراء هدية لكل منهما ، فطلب ابنه هندلي «آلة كمان » بينما طلبت هي «سوطًا» لأنها كانت تجيد ركوب الخيل رغم حداثة عمرها. وذهب إيرن شو لشراء الهديتين ، لكنه عاد ومعه طفل صغير أسمر اللون وشعره داكن ومشعث ويرتدي ثيابًا بالية ويكاد يتضور جوعًا . كان اسمه هيثكليف . نسي إيرن شو شراء الهديتين ! قدم إيرن شو الطفل إلى أسرته ، فلم ترحب به السيدة إيلين زوجة إيرن شو كما لم يرحب به هندلي . وكانت كاثرين مقربة إليه، كما كان هيثكليف مقربًا إلى السيد إيرن شو ومفضلاً أيضًا . وقد أحس هندلي أن هيثكليف قد اغتصب مكانته عند أبيه ، فقد كان قويًا وصلبًا ورزينًا .

تقدم السن بالسيد إيرن شو ، ثم تمكن منه المرض ، إلى أن مات . وكان قبل موته يشعر بالقلق لإحساسه أن الناس يكرهون هيثكليف وهو المفضل لديه .. بينما أحس هندلي بالمرارة لهذا الوضع . بذل جوزيف الخادم العجوز كل جهده وخبرته بالدين والإنجيل لإبعاد إيرن شو عن أولاده ؛ فقد تمكن منه الشعور بأن ابنه هندلي لا يستحق أي شيء ، كما كانت لا تعجبه بساطة كاثرين وحيويتها وميلها للمرح واللعب .. وظل هكذا حتى دنا عمره من الموت . كانت كاثي متيمة بهيثكليف وكانت تهوى توجيه الأوامر لكل من حولها ، بينما كان هيثكليف على استعداد لتلبية كل متطلباتها وأوامرها ، وكان أبوها حادًا وعنيفًا معها .

أخيرًا مات إيرن شو بينما كانت كاثي تضع رأسها بين ركبتيه ، ويضع هيثكليف رأسه في حجرها ، وحين أرادت أن تقبل أبيها وتقول له : تصبح على خير اكتشفت أنه مات ! فبكى الطفلان معًا . في تلك الليلة أدركت إيلين كيف أصبح لدى هذين الطفلين القدرة على تهدئة وإراحة كلٍ منهما الآخر ، أكثر من أي شخص آخر حتى هي نفسها . فقد استطاع الطفلان إقناع بعضهما البعض أن الأب إيرن شو قد ذهب يعيش هناك في السماء .

عاد هندلي إلى بيته وفي صحبته زوجته على غير المتوقع.. كانت امرأة متقلبة ذات مزاج حاد ، ولديها خوف غير طبيعي من الموت خاصة أنها ظهر عليها أعراض مرض السل . لم يصطحب هندلي زوجته فقط ، بل عاد ومعه قوانين جديدة وأسلوبًا جديدًا لإدارة المنزل ؛ فقد أصدر أوامره إلى كل الخدم أن ينتقلوا للعيش في مكان أدنى كثيرًا مما يعيشون فيه . والأهم من هذا كله أنه بدأ معاملة هيثكليف كخادم ، ومنع عنه فرصة التعليم ، ودفعه للعمل في الحقول مثل أي فلاح بسيط . في البداية لم يبال هيثكليف لهذا التغير ، فقد كانت كاثي تعلمه ما كان سيتعلمه في المدرسة ، وكانت تذهب لتلعب معه في الحقول . بعيدًا عن هندلي بقضاء وقتهما في الحقول ، لذلك تطبعت حياتهما بالهمجية والتحرر ، وقد اعتادا مثلاً أن يهرولا صباحًا إلى المستنقعات ويقضيان يومهما كله هناك، وحتى بعد أن نزل عليهما العقاب ، كانا يضحكان لذلك!

على الرغم من عملية العقاب هذه ، تسللا من البيت وقضيا النهار كله . وحين عاد هيثكليف ليلاً ، أخبرهما بما حدث . فقد ذهب هو بصحبة كاثى إلى قرية جرينج ليريا كيف يعيش الناس هناك ، وقد التقيا أولاد لينتون



إدجار وإيزابيلا في غرفتهما الجميلة ، وكانا يتسابقان فيما بينهما على من يمسك بالكلب المدلل . فضحك هيثكليف وكاثي في سخرية ، لذلك بكا الأخوان وأخبرا أبويهما بما فعله هيثكليف وكاثي، اللذان خافا واضطرا إلى الفرار ، لكن أمسك كلب حراسة كبير بساق كاثي ورفض أن يتركها . فطلبت منه أن يهرب لكنه رفض أن يتركها وحاول إرغام الكلب الضخم على فتح فكيه لإنقاذ كاثي .. ظن الناس أنهما لصان . وعندما عرف إدجار حقيقة كاثي وإنها ابنة إيرن شو ، عبر أبناء لينتون عن اشمئزاز واحتقار لترك كاثي في صحبة هيثكليف ، واصطحبا كاثي معهما وطردا هيثكليف، فرجع هيثكليف بعد أن تأكد أن كاثي في أيدٍ أمينة .

كانت هذه فرصة مناسبة جدًّا ، استغلها هندلي في التفريق بين كاثي وهيثكليف، فكانت هي تقضي فترات طويلة في زيارة أبناء لينتون . ولم يسمح لهيثكليف بالتحدث إليها .

أقامت كاثي في قرية ثرشكروس جرينج لمدة خمسة أسابيع حتى حلول الاحتفالات بأعياد الكريسماس . وحين عادت اكتشفت أن القيود المفروضة عليها حولتها إلى سيدة صغيرة ، وبدأت في الاستهزاء بهيثكليف حين كانت تقارن بين سوء مظهره وثيابه وقذارته بنظافة وأناقة إدجار وإيزابيلا . أصبح الفتى مُهملاً تمامًا في غياب كاثي ، وكان هندلي يتعمد تحقيره وتذكيره بوضعه المتواضع . ولكن الحقيقة التي لم يدركها هو أن مشاعر كاثي نحوه لم تتغير ، وقد هرب ذات مرة ورفض العودة للعشاء، فأسفت إيلين لما أصابه وحزنت .

تم دعوة إدجار وإيزابيلا في اليوم التالي لحضور حفل الكريسماس . صباح ذلك اليوم اقترب هيثكليف من إيلين وطلب منها أن تساعده على أن يبدو شخصًا لطيفًا لأنه قرر أن يكون إنسانًا طيبًا . رحبت إيلين بما قاله وأخبرته أن كاثي لم تتغير نحوه وأنها كانت تحزن لخجله الشديد ، وعندما قال لها إنه يتمنى أن يكون رقيقًا وثريًا ويحسن التصرف مثل إدجار ، قالت له إيلين إنه يمكنه أن يكون وسيمًا دون تخنث إذا تعلم كيف يبتسم وكيف يتكلم وكيف يكون موضع ثقة .

في هذا اليوم ، استطاع أن يتحول إلى إنسان نظيف وأنيق ومبتهج وحاول حضور الحفل ، لكن هندلي منعه بقوة بزعم أنه لا يليق به حضور الحفل أو التواجد في هذا المكان ، ثم طرده . عندما سخر إدجار من هيثكليف ، غضبت منه كاثي وكادت تفجر مشكلة لكنها كانت لا تريد إفساد الحفل .. تظاهرت بالابتهاج أمام المدعوين، ولكنها في حقيقة الأمر كانت حزينة جدًّا من أجل هيثكليف . وما أن انتهى الحفل حتى هرولت كاثي إلى مكان تحديد إقامة هيثكليف في الدور العلوي .

فيما بعد ، قدمت له إيلين طعام العشاء لأنه لم يتناول أي شيء طول اليوم، فتناول القليل منه . ولما سألته إيلين عما به أجاب أنه يفكر فعلاً في الانتقام من هندلي .

أنجبت فرانسيز زوجة هندلي ولدًا أسمته هاريتون وكان الحمل خطيرًا جدًّا على صحتها وكم حذرها الطبيب من هذا الحمل لإصابتها بالسل . لكن كانت وزوجها هندلي يتوهمان بتحسن حالها . على أي حال ، ماتت فرانسيز بعد أسابيع قليلة من ولادة هاريتون ، فحزن هندلي حزنًا شديدًا على فراقها ، ولم يكن يعبر عن حزنه بالبكاء أو الصلاة ، وإنما تحول إلى

شخص مسرف ومهمل وانغمس في الملذات كرد فعل لوفاة زوجته . وتحول البيت إلى اضطراب عنيف ، لدرجة أن الجيران امتنعوا عن زيارته ، باستثناء إدجار . أما هيثكليف فقد تحول بسبب سوء معاملة هندلي له إلى مزيد من الشراسة والقسوة والعنف . لم ترحب كاثرين بزيارة إدجار إلى «مرتفعات وذرنج» لأنه طالما تسبب لها في ألم شديد لسوء معاملة هيثكليف أو للتحدث عنه بأبشع العبارات. فبدأت تعامل إدجار بأسلوب عائلة لينتون المعتاد ، وكم آلمها ذلك !

ذات يوم ، وكان هندلي خارج البيت ، غضب هيثكليف لرؤيته كاثرين ترتدي ثوبًا جريئًا استعدادًا لاستقبال إدجار ، فطلب منها إلغاء الزيارة وأن تقضي الوقت معه ، لكنها رفضت ، فأصبح إدجار منذ تلك اللحظة إنسانًا لطيفًا وأنيقًا ومحبوبًا . وصل إدجار للبيت ، فغادره هيثكليف ، وبقيت إيلين مرافقة لكاثرين التي غضبت لذلك ، فقامت بتوجيه عبارات جارحة آلمت إيلين . لكن إيلين فرحت بذلك لأنها كانت تريد أن يراها إدجار على طبيعتها . فوجه إدجار اللوم إلى كاثرين لتوبيخها إيلين ولكنها أنكرت ذلك . في انفعال وغضب صفعت إيلين ثم إدجار لدفاعه عن إيلين . فقرر أن ينصرف ، عندئذٍ عادت كاثي (كاثرين) إلى صوابها ، فطلبت منه البقاء . ولأن إدجار لم يكن يستطيع مقاومة شخصية كاثي القوية ، وافق على البقاء مستسلمًا .. لقد نجحت هذه المشاجرة في إسقاط الحواجز ، بين إدجار وكاثي ، فأعلن كلٌّ منهما حبه للآخر !

سمعت إيلين جلبة وضوضاء صاحبت عودة هندلي وهو مخمور ، ودون وعي منه أفرغ الرصاص من مسدسه !! ثم اقتحم البيت بأسلوب صاخب ومفزع، واتجه إلى إيلين وهددها بالقتل بسكين بزعم أنها تخفي عنه ابنه

هاريتون الصغير. وجذبه منها فكاد الطفل يسقط على الأرض لولا تواجد هيثكليف مصادفة ، فتدخل بسرعة وأنقذ الطفل من السقوط على الأرض، وأعاده لأبيه ، وقد همس هيثكليف لإيلين أنه كان يتمنى أن يتركه يسقط .

في المطبخ حضرت كاثي للتحدث إلى إيلين ، ولم تعرف إحداهما أن هيثكليف يجلس في مكانه دون أن يراه أحد . صرحت كاثي لإيلين أنها حزينة جدًّا لأن إدجار طلب منها الزواج فوافقت ، فسألتها إيلين: هل تحبين إدجار ؟ فأجابتها أنه سيصبح رجلاً ثريًّا وهي تتمنى أن تكون أعظم امرأة في الناحية كلها وأن تكون فخورة به . اعترضت إيلين على هذا الكلام . فاعترفت كاثي بأنها مخطئة وأنها كانت تحلم دائمًا بالصعود إلى السماء ، لكنها كانت تفتقد «مرتفعات وذرنج» . وأضافت أنها كانت تتمنى لو كان هيثكليف في وضع أفضل مما هو عليه ، لتزوجته على الفور، ليس لوسامته أو ثرائه ، بل لأنه يفهمني أكثر مما أفهم نفسي .. إننا روحان متشابهان ، وأعلنت لها أنها تختلف عن إدجار كما تختلف النار عن الثلج . غادر هيثكليف المكان عندما أعلنت هي استعدادها للزواج منه . على أي حال أخبرتها إيلين أن هيثكليف سيحزن إن هي تزوجت إدجار ، فقالت لها كاثي إنها إن تزوجت إدجار فستعمل جاهدة على رفع شأن هيثكليف. فقالت لها إيلين إن هذا الوضع سيغضب إدجار ، فردت كاثي بانفعال إنها على استعداد أن ترى عائلة لينتون تفنى عن آخرها ولا تهجر هيثكليف .

مساء ذلك اليوم إختفى هيثكليف ولم يعرف أحد أين ذهب .. خرجت كاثي (كاثرين) تبحث عنه رغم سوء الأحوال الجوية . فلم تعثر عليه وأصابتها حمى شديدة .. فذهبت إلى أسرة لينتون للتشافي هنـــاك ، وبعد فترة توفي والدا إدجار وإيزابيلا . وقد اتهمت إيلين كاثي بأنها مسئولة عن

اختفاء هيثكليف ، فامتنعت كاثي عن الكلام معها . بعد مرور ثلاث سنوات تزوجت كاثي من إدجار ، وقبلت إيلين على مضض الذهاب إلى جرينج لتعيش معها هناك ، وتركت هاريتون ليعيش مع أبيه البائس .

كانت كاثي سعيدة في حياتها مع إدجار ، وكذلك مع إيزابيلا رغم أنها كانت تعتريها لحظات صمت وحزن ، وقد أرجع إدجار هذا إلى مرضها الشديد .

بعد عام من زواجها عاد هيثكليف والتقى إيلين ، وطلب منها أن تخبر كاثي أنه يريد مقابلتها . لقد تغير تمامًا حتى صار أكثر طولاً وأناقة وقوة ولباقة وكأنه قد التحق بالجيش وكانت نظراته تنم عن شراسة متحضرة!. وعندما حضر كانت كاثي سعيدة جدًّا ولم تجد تفسيرًا لغضب إدجار ؛ خاصة أن هيثكليف جاء لتناول الشاي وأخبرها أنه يقيم في «مرتفعات وذرنج» ، وأنه يكسب من خسائر أخيها هندلي في لعب الورق (القمار) .. تضايقت كاثي كثيرًا لأنها لم تكن تسمح لأحد بإيذاء أخيها .

في الأسابيع التي تلت هذه الأحداث . كان هيثكليف يزور قرية جرينج كثيرًا ، وقد التقى أكثر من مرة إيزابيلا التي أصبحت فتاة بالغة الجمال والأنوثة في الثامنة عشرة من عمرها ، وقد تعلقت بالفتى هيثكليف ؛ الأمر الذي أثار اشمئزاز إدجار ، وتضايقت كاثرين كثيرًا لهذا الأمر ، فأعلنت لها إيزابيلا أنها لن تسمح لها بالاحتفاظ بهيثكليف ، فقالت لها كاثي محذرة : « إن هيثكليف أسوأ شخص يمكن أن تقعي في حبه ، وإنه لا يناسبكِ أبدًا، وإنه على استعداد أن يدوس عليكِ ويسحقكِ مثل بيضة العصفور إن أنتِ وقفتِ في طريقه » .

تضايقت إيزابيلا عندما أخبرت كاثي هيثكليف بحب إيزابيلا له ، فهربت إيزابيلا من البيت .. وهنا صرح هيثكليف لكاثرين أنه يسعى للزواج من إيزابيلا لسببين : أن يستولي على أموالها ، وأن يغيظ أخاها إدجار، وأخبرها أنه سيضربها كل ليلة على وجهها الشمعي البشع .

ذهبت إيلين - أو نيللي كما يناديها إدجار - لزيارة «مرتفعات وذرنج» للاطمئنان على هندلي وابنه هاريتون .. وعثرت على هاريتون يلعب خارج المنزل ، واندهشت لأن الولد لم يتعرف عليها وإنما سبّها وشتمها ثم رماها بحجر . وأدركت أن أباه هو الذي علمه أن يشتم الناس ، وأنه أحب هيثكليف حتى يمنع أباه من سبّه وشتمه . ما أن همت إيلين أو نيللي بدخول البيت حتى لمحت هيثكليف ، فانتابها الخوف وخرجت مهرولة عائدة إلى بيتها .

في زيارة هيثكليف الثانية لبيت كاثي ، شاهدته نيللي أو إيلين وهو يقبل إيزابيلا في الحديقة .. فأخبرت كاثي بما رأته . وحين واجهته كاثي بما سمعته من نيللي قال هيثكليف : إن من حقه أن يفعل ما يشاء ما دامت هي قد تزوجت إدجار ، وإذا كانت تفرح لرؤية هيثكليف يتعذب فإن من حقه أيضًا أن يراها تتعذب ولو مرة واحدة. فجأة شاهدت نيـللي مَقدمَ إدجار أثناء توبيخها لهيثكليف ، وحين شاهد إدجار ما يحدث قام بتوجيه اللوم لها؛ لأنها تتحدث إلى ذلك الحارس الأسود . فغضبت جدًّا خاصة أنها كانت تدافع عن عائلة لينتون فأمر إدجار هيثكليف بمغادرة المنزل ، ولكنه تجاهل الأمر ولم يحرك ساكنًا ونظر إليه باحتقار . بعد ذلك توجهت كاثي إلى الباب وأغلقته بالمفتاح، وحين حاول إدجار أخذ المفتاح ألقت به

بتحدٍ في نيران المدفأة ثم سخرت منه هي وهيثكليف. فأحس إدجار بالإهانة وقفز من النافذة طلبًا للمساعدة. فأنذرته نيللي أن إدجار سيستدعي الخدم لطرده شر طردة .. فآثر هيثكليف الخروج بكرامته !

عندما بقيت كاثرين وحدها مع نيللي عبَّرت لها عن غضبها الشديد من زوجها ومن صديقها وقالت : « إذا استمر إدجار في غيرته ووضاعته ، فسوف أخسر صديقي . لذلك سأقوم بكسر قلبيهما وذلك بكسر قلبي أنا». عاد إدجار غاضبًا وطلب منها أن تقطع علاقتها بهيثكليف ، وهنا ثارت كاثي ثورة جامحة انتهت بنوبة جنون مفتعلة !

مضت ثلاثة أيام وقد حبست كاثي نفسها في غرفتها ، وقضى إدجار وقته في المكتبة . بينما أخذت إيزابيلا تتجول في الحديقة ، وعند نهاية اليوم الثالث طلبت كاثي من نيللي بعض الطعام لأنها بدأت تشعر أنها تموت . فأعدت لها بعض الشطائر التي أكلتها كلها ، ثم سألتها عن أحوال إدجار وعندما أخبرتها إيلين أن إدجار لم يبد أي انفعال لما حدث ، انتابت كاثي ثورة غضب جامحة وقالت : «شيء غريب وعجيب ! لقد ظننت أنهما يكرهان ويحتقران بعضهما البعض ، فكيف يتحولان عن هذا العداء في غضون ساعات » . هنا بدأت إيلين تشعر أن كاثي تَهذي فعلاً ؛ خاصة أن كاثرين ظنت أنها قد عادت إلى غرفتها في مرتفعات وذرنج ، وأنها تخشى أن ترى نفسها في المرآة . بينما لم تكن ثمة مرآة في غرفتها . ومما أزعج إيلين أن كاثي فتحت نافذة غرفتها وتحدثت إلى هيثكليف وكأنهما في سن الطفولة، بينما لم يكن هيثكليف موجودًا في المكان كله ! حضر إدجار بسرعة إلى غرفة كاثرين وانزعج لحالتها وقام بتوجيه اللوم إلى إيلين ؛ لأنها تأخرت في إبلاغه بما أصاب كاثرين (كاثي) .

أسرعت إيلين لاستدعاء الطبيب ، وراعها أن ترى كلب إيزابيلا مخنوقًا بمنديل ويتدلى على بوابة البيت . فقامت بإنزاله ثم توجهت إلى عيادة الطبيب دكتور كينيث الذي أخبرها في الطريق أنه قد شاهد إيزابيلا تتجول لساعات طويلة في الـمنتزه مع هيثكليف . لاحظت إيلين اختفاء إيزابيلا فعلاً من البيت ، وقد أخبرها صبي أنه رآها تمتطي صهوة حصانها وترحل مع هيثكليف ! أخبرت إيلين السيد إدجار بما عرفته ، ورجته أن يتدخل لإنقاذ أخته من الانزلاق إلى الهاوية ، لكن أصابتها دهشة شديدة حين أجابها إدجار في برود برفضه التدخل !!

خلال الشهرين التاليين ، أصيبت كاثرين بأسوأ صدمة عصبية وكانت معروفة في ذلك الوقت (بحمى المخ) . ولم يكن لمثل هذه الحالات أي علاج ، ومن ثمّ بات ميئوسًا من شفاء كاثي . عادت إيزابيلا وهيثكليف إلى مرتفعات وذرنج . وكتبت إيزابيلا إلى أخيها إدجار ترجوه الصفح والمغفرة ولم يرد عليها، فكتبت رسالة مطولة إلى إيلين تسألها : هل هيثكليف مجنون؟ وطلبت منها أن تطلعها على تجربتها معه . لقد وجدت البيت في مرتفعات وذرنج قذرًا وهمجيًّا وليس به دفء الترحيب . فالخادم جوزيف كان فظًّا وعنيفًا معها ، وهاريتون لا يعرف الطاعة والاحترام . أما هندلي فكان مخبولاً ومجرد بقايا حطام إنسان ، ما جعل هيثكليف أن يعاملها بوحشية ؛ ورفض أن تبيت في غرفته . فكان عليها أن تعيش في غرفة صغيرة في الدور العلوي . امتلك هندلي بندقية ذات سونكي فوق الماسورة وانحصرت أحلامه في قتل هيثكليف بتلك البندقية ! مسكينة إيزابيلا .. كانت بائسة بحق ، وكم ندمت على زواجها من هيثكليف !

تضايقت إيلين لرفض إدجار الصفح عن أخته إيزابيلا . فقررت أن تذهب للقائها . وفي مرتفعات وذرنج التقت هيثكليف وإيزابيلا وأخبرتهما بحالة كاثي الميئوس من شفائها ، وتوسلت إلى هيثكليف ألا يتدخل في حياتها مرة أخرى . لكنه أصر على إنقاذها من رعاية إدجار الفاترة لها . وأكد لهما أنها تحبه أكثر من زوجها وأنه لو كان في مكان إدجار ما تدخل أبدًا في علاقاتها بأصدقائها . أما هو ، أي هيثكليف ، لما كان يتردد في قتل أصدقائها . وطلبت إيلين منه أن يحسن معاملة إيزابيلا ، فقال في حضورها إنه يكرهها ويحتقرها . فردت إيزابيلا إنها تكرهه كذلك ، فأمرها بالصعود إلى غرفتها .

عندما اختلى بإيلين طلب منها أن ترتب له موعدًا للقاء كاثرين ، وإلا اقتحم البيت ومعه بندقيته ، فاقترحت أن يكتب لها رسالة تقوم هي بإيصالها .

صباح الأحد التالي لهذه الزيارة .. وبينما ذهب معظم الناس إلى الكنيسة سلمت إيلين رسالة هيثكليف إلى كاثرين ، فتغيرت ملامح كاثرين بمجرد استلامها الرسالة ، ثم غادرت إيلين الغرفة وتركت الباب مفتوحًا فتسلل هيثكليف إلى كاثرين التي كانت تنتظره في شغف . كان تواجدهما مرة أخرى هو العسل المر ، فاتهمت كاثرين هيثكليف بأنه قتلها ، فحذرها من تكرار هذا الاتهام وإلا عاش في عذاب بعد موتها .. وقال إنها أخطأت كثيرًا حين هجرته ، فطلبت منه أن يصفح عنها وإلا ما عرفت السلام بعد موتها .

فأجابها : كيف لا أصفح وأنا أنظر إلى هاتين العينين وأمسك بهاتين اليدين .. لقد جعلتني أعشق قاتلتي ، ولم يتمالك نفسه وتعانقا عناقًا حميًا لفترة طويلة ، ولم يفيقا إلا على صوت إيلين تحذرهما من عودة إدجار .. قرر هيثكليف أن ينصرف ولكن كاثرين أصرت على بقائه فربما تموت ولا تراه مرة أخرى .. فوافق . وفي خضم هذه الانفعالات ، شعرت إيلين بارتياح حين لاحظت أن يد كاثرين تسقط في هدوء واسترخاء .. هل ماتت أو هي في حالة إغماء ؟! دخل إدجار فسلمه هيثكليف يد كاثي ، وطلب منه أن يحسـن رعايتها ويعتني بها أولاً ، ثم يتحدث معـه بعد ذلك . واستدار إلى إيلين وقال لها إنه سينتظر في الخارج ليعرف آخر أخبار كاثرين.

في منتصف الليل أنجبت كاثرين ابنة . فأسموها كاثرين أيضًا . وهي تلك الفتاة التي التقى بها لوك وود في مرتفعات وذرنج . لم يهتم أحد بالصغيرة فقد كان الاهتمام كله موجهًا إلى كاثرين الأم ، التي ودعت الحياة في هدوء ، وكما قالت إيلين: أخيرًا ستنعم بالراحة والسلام في السماء .

خـرجت إيلين لتخـبر هيثكليف ، الذي كان متكئًا على شجـرة دردار بلا حراك ، بموت كاثرين ، فسألها : كيف كان موتها؟ .. ربما كان يريد أن يخفي جزعه . كانت إيلين تفهمه جيدًا فأخبرته أنها ماتت في سلام وكأنها فتاة تغط في نومها . فحزن كثيرًا لأنها رحلت دون أن تأخذه معها بكى وبكى .. ثم قال : « ليتها تأخذني معها.. أنا لا أستطيع أن أعيش دونها في جهنم هذه ، لا أستطيع أن أعيش دون روحي » ، وأخذ يضرب رأسه في الشجرة ، وهو يعوي مثل حيوان مفترس ينخسونه بسهام وحراب وسكاكين حتى الموت إلى حد أن إيلين أصابها الذعر .

في يوم الثلاثاء ، ولازال جثمان كاثرين مغطى بالورد في قرية جرينج ، استغل هيثكليف فرصة خروج إدجار من غرفة الموت ودخل لمشاهدة كاثرين للمرة الأخيرة وقام بتبديل شعر إدجار في قلادتها بشعره هو . لاحظت إيلين هذا ، فقامت بوضع شعر إدجار وهيثكليف في قلادة كاثرين لتأخذهما معها في رحلتها الأخيرة . تم دفن كاثرين يوم الجمعة في منحدر مليء بالخضرة والأشجار في حديقة الكنيسة . وقالت إيلين : « إن زوجي يرقد هنا أيضًا » !

في اليوم التالي وبينما إيلين تهدهد الطفلة كاثرين ، دخلت إيزابيلا وهي تضحك مثل المجنونة .. كان وجهها شاحبًا ممزقًا وكذلك ملابسها الجلدية الرقيقة، وطلبت من إيلين في لهفة أن تستدعي لها عربة تقلها إلى أقرب مدينـــة وهي جيمرتون لأنها قررت الهروب من زوجها ، وأن تجعل الخادمة تحضر لها بعض الملابس .. ثم وافقت على أخذ بعض ملابس إيلين الجافة ، بعد أن تضمد لها جراحها . وحاولت إيزابيلا كسر خاتم الزواج ثم شرعت تحكي وقائع ما حدث لها في الأيام الماضية .. اعترفت لها أنها لم تشعر في أي لحظة بأية مشاعر تجاه هيثكليف ، ولم تحاول حتى الوقوف معه بعد أحداث موت كاثرين .

لم يتناول أي طعام على مدي أيام طويلة وحبس نفسه في غرفة ليتلو الصلوات ويتغذى على الرماد والتراب .. وفي الليلة السابقة على الأحداث التي جرت لها، كانت إيزابيلا تقرأ وهندلي يشرب بشراهة ، عندما سمعا هيثكليف يعود من نوبة مراقبته لقبر كاثرين .. فقال هندلي لإيزابيلا إنه لا يريد أن يفتح له الباب وإلا قتله بمسدسه . لذلك حين طرق هيثكليف الباب . رفضت أن تفتح له ، وقالت : لو كنت مكانك لذهبت ومددت

جسدي فوق ذلك القبر وأموت ميتة الكلب الأمين .. هل يستحق العالم أن تعيش فيه الآن ؟. واقترب هندلي من النافذة ليقتل هيثكليف ، ولكنه استطاع نزع المسدس من يده وأن يصوب إلى رسغه فأصابه ثم اقتحم المكان وقام بضرب هندلي ، الذي أصيب بالإغماء لما نزفه من دم .. ثم ربط هيثكليف الجرح بخشونة وأمر جوزيف وإيزابيلا بإزالة آثار الدماء .

صباح اليوم التالي ، وعندما نزلت إيزابيلا من غرفتها وجدت هندلي يجلس بالقرب من المدفأة مريضًا جدًّا . وبعد تناولها الإفطار وحدها أخبرت هندلي كيف ظل هيثكليف يضربه وهو فاقد الوعي على الأرض . ثم سخرت من هيثكليف لاعتدائه السافر على أخيها الحبيب، وقالت له : « كل إنسان يعرف أنه إن لم تمت أختك لكانت تزوجت من هيثكليف » .. كان هيثكليف في حالة من الحزن والإعياء إلى حد أنه لم يستطع أن يدافع عن نفسه أو يرد ، فاستمرت إيزابيلا في هجومها عليه وقالت : « إذا حدث وتزوجت كاثرين من هيثكليف لقام بضربها كما يضرب إيزابيلا » .. وعلى الفور رماها هيثكليف بسكين فاستطاعت أن تتفاداها ، ثم هربت إلى قرية جرينج .

صباح اليوم التالي غادرت بلا عودة . وبعد أن استقر بها المقام في الجنوب أنجبت طفلاً أسمته لينتون وكان طفلاً مريضًا ومعتلاً ونكدًا ، ومات عندما بلغ الثانية عشرة من عمره . استسلم إدجار لموت كاثرين .. وأحب ابنته التي أسماها كاثي ومات هندلي مخمورًا بعد انقضاء ستة أشهر على وفاة كاثرين ، ولم يبلغ السابعة والعشرين من عمره ؛ أي إن كاثرين كانت في التاسعة عشرة . وكان هيثكليف في العشرين من عمره بينما بلغ إدجار الحادية والعشرين .. حزنت إيلين لوفاة هندلي خاصة أنها كانت في

مثل عمره ونشآ معًا ، وظلت حريصة على أن يدفن بطريقة تليق به . فكرت أن تصحب هاريتون معها إلى جرينج ، ولكن هيثكليف رفض وزعم أنه يريد الاحتفاظ به ليقوم بتنشئته كما نشأ هو ، وأمام عناده وغلظته تراجعت إيلين عن فكرة ضم هاريتون إليها .

بعد انقضاء اثنتي عشرة سنة ، أصبحت كاثي لينتون هي شمس هذا البيت المهجور ، ونوره . كانت جميلة مثل أفراد عائلة لينتون .. لكنها ورثت عن أمها سواد العينين ، وكانت رقيقة ونشيطة ، وقد ورثت كل الخصال الحميدة في عائلة لينتون وإيرن شو . ويزيد على ذلك أنها كانت تعرف طريقها جيدًا ، وقد حرص أبوها على الإبقاء عليها داخل إطار متنزه جرينج لكنها كانت تواقة لرؤية التلال المحيطة وكذلك جرف بنستون ، وهي أماكن قريبة من المستنقعات .

عندما استبد المرض بإيزابيلا ، كتبت إلى إدجار ترجوه أن يقوم بزيارتها.

فاستجاب فعلاً لرغبتها وقضى عندها ثلاثة أسابيع .. في تلك الأثناء طلبت كاثي من إيلين أن تزودها ببعض الطعام لأنها ستقوم بجولة حول الأراضي المحيطة . وستذهب إلى الصحراء كأنها تاجر عربي يخوض الصحاري بعربة نوم كارافان يجرها حصان قزم وثلاثة كلاب ، وذهبت فعلاً في رحلتها . وبعد فترة أحست إيلين بالقلق عليها فقامت واتبعتها في الطريق إلى جرف بنستون الذي يمر بمرتفعات وذرنج . وقد وجدت كاثي آمنة هناك وسليمة ، ولم يكن هيثكليف موجودًا هناك ؛ فأتاحت لها المربية فرصة الحديث مع هاريتون الذي بلغ الثامنة عشرة. لقد هاجمت هاريتون بشدة لأنها حين سألته : هل أنت ابن سيد البيت؟ ، أجابها بالنفى. وعندما قالت لها المربية إن هاريتون ابن خالتها ، بكت ، فأهدتها المربية دمية لتكف

عن البكاء ، فرفضتها كاثي ، وقد أخبرتها إيلين أن أبيها لم يكن يرغب أن تذهب إلى « مرتفعات وذرنج » وطلبت ألاّ تخبره بذلك ، فوعدتها .

ماتت إيزابيلا .. وعاد إدجار بابن أخته اليتيم لينتون ، الذي كان يبدو عليه الضعف والوهن والتخنث أيضًا . في تلك الليلة حضر الخادم جوزيف يخبرهم أن هيثكليف يريد رؤية ابنه لينتون ، ولكن إيلين قالت للخادم جوزيف إنها لابد أن تخبر إدجار بذلك .. فأصر الخادم على أخذ الطفل لأبيه . دخلت إيلين غرفة إدجار لتخبره بالأمر ، فقال لها إنه ليس من حقه أن ينسب الابن له لأن هذا حق هيثكليف .. لكنه ينوي مواجهة تلك المشكلة . وطلب منها أن تنتظر حتى الصباح .

صباح اليوم التالي ، أيقظت إيلين لينتون مبكرًا واصطحبته إلى « مرتفعات وذرنج » ، وقد وعدها - مخادعًا - أن الزيارة لن تطول .. وكان الطفل في دهشة من أمره حين عرف أن له أب لأن أمه إيزابيلا لم تحدثه قط عن أبيه هيثكليف ، وقد اعترض هيثكليف وجوزيف على أسلوب لينتون المخنث ، وانهال على أمه بالسباب لأنها لم تخبره أن له أب اسمه هيثكليف .. طلبت إيلين منه أن يعامل الولد بلطف وأن يرعاه ؛ فوعدها بذلك لأنه يريد أن يربيه كرجل يستحق أن يكون وريث العائلة ، وتمني أن يعيش حتى يموت إدجار ويرثه . لذلك .. حين قدم له جوزيف وجبة طعام من الشوفان ، ورفض الطفل أن يأكلها ، أمر هيثكليف خادمه أن يغيّر الوجبة له . وعندما رحلت إيلين عائدة إلى بيتها في جرينج ، بكى الطفل وصرخ لكي لا تتركه هناك .

افتقدت كاثي ابن عمها عندما استيقظت في الصباح ولم تجده ؛ ورغم تأثرها إلا أن الزمن كان كفيلاً بأن يجعلها تنساه. شبّ لينتون وأصبح ولدًا أنانيًا ونكدًا وسيئ الطباع . وكان كثير الشكوي من اعتلال صحته ، وعندما بلغت كاثي السادسة عشرة من عمرها خرجت ذات يوم بصحبة إيلين إلى منطقة المستنقعات وشردتا ناحية الأرض التي يمتلكها هيثكليف ، فعثر عليهما هناك . ودعاهما لزيارة وذرنج ، حيث أخبر إيلين أنه يرغب في تزويج لينتون إلى كاثي ، وبذلك يمكنه أن يرث قرية جرينج .. كانت كاثي سعيدة برؤيتها ابن عمها ، رغم عدم ارتياحها لتصرفاته المنفرة أحيانًا، وبناءً على رغبة هيثكليف قام هاريتون باصطحابها في جولة حول المزرعة رغم خجله منها ومعاملتهـا السيئة له .

فيما بعد أخبرت كاثي أبيها بهذه الزيارة وسألته عن سبب عدم التقاء هؤلاء الأقارب (وكان هيثكليف قد أخبرها أن إدجار لا يحب الاتصال به لأنه فقير ، ولم يرغب أن يزوجه إيزابيلا) فأخبرها إدجار عن خبث ووضاعة هيثكليف ، ومنعها من معاودة الذهاب إلى « مرتفعات وذرنج » . لم تتقبل هذا الأمر بارتياح ، فبدأت على الفور اتصالاتها السرية بلينتون ، ولكن بمرور الوقت اكتشفت إيلين هذه المسألة ، وحذرت كاثي أنها ستخبر أباها بكل شيء إن استمر هذا الوضع.

في الخريف أصيب إدجار بنوبة برد قاسية ألزمته الفراش طوال الشتاء .. شعرت كاثي بالحزن الشديد لانتهاء القصة الغرامية مع لينتون ، وأخبرت إيلين أنها حزينة وخائفة أن تقضى حياتها وحيدة بعد موت أبيها وإيلين نفسها ، وأثناء تجوال كاثي ذات مرة بالقرب من المتنزه ، التقت هيثكليف

مصادفة ، وأخبرها أن ابنه لينتون يكاد يموت من حسرته عليها ، وطلب منها زيارته إن كان لا يزال في قلبها رحمة . وحين أخبرت إيلين ، قالت لها إن هيثكليف كاذب ولا يمكن الوثوق به، ولكن في صباح اليوم التالي استطاعت كاثي إقناع إيلين بالذهاب إلى « مرتفعات وذرنج » .

ما إن اقتربنا من البيت حتى سمعنا صوتًا فظًّا يأمر جوزيف بإحضار فحم للمدفأة .. وحين دخلتا التقى بهما لينتون الذي رحب بهما بفتور ، وطلب من كاثي ألاَّ تقبّله لأن هذا يجعله لا يستطيع التنفس . كما أخبرها أن مسألة كتابة رسائل لها يرهقه كثيرًا ، كما اشتكى أن الخدم لا يعتنون به كما ينبغي وأنه يكرههم ، وقال إنه يتمنى الزواج بها لأن الزوجات عادة يحببن أزواجهن ، فأجابته بأن هذا أمر قليل الحدوث ، بدليل أن أباها أخبرها أن عمتها إيزابيلا لم تحب هيثكليف . فاغتاظ لينتون لذلك وأخبرها، في حدة ، أن أمها كذلك لم تكن تحب أبيها بل أحبت هيثكليف . فما كان منها إلا أن هزت المقعد الذي يجلس عليه بشدة فأخذ يسعل حتى اعتذرت له . استغل لينتون فرصة هذا الاعتذار وظل يتقرب إليها، ويتظاهر بوسواس المرض حتى أقنعها بزيارته في اليوم التالي .

في طريق العودة ، أخبرت إيلين كاثي باستيائها من شخصية لينتون ومن علاقتها به ؛ لأنه من المحتمل أن يموت صغير السن . لم تقتنع كاثي بهذا الكلام وشعرت بمزيد من الألفة والود تجاهه ، أصيبت إيلين بنوبة برد ألزمتها غرفتها ، وقضت كاثي وقتها في عيادة أبيها ومربيتها .. فكانت مشغولة بالنهار . أما في المساء فكانت تقوم بزيارة لينتون ، وهذا ما اكتشفته إيلين فيما بعد . شفيت إيلين تمامًا بعد انقضاء ثلاثة أسابيع ، وقد عرفت

بموضوع زيارات كاثي المتكررة إلى « مرتفعات وذرنج » ، وقد أخبرتها كاثي بكل ما حدث .

استطاعت كاثي إقناع أحد الخدم بالعناية بسرج حصانها الصغير وألا يخبر أحد بمغامراتها هذه . وفي زيارتها الثانية اتفقت هي ولينتون على اختيار أفضل وسيلة لقضاء أمسية صيف جميلة .. كان يحلم أن ينام على ظهره وسط حديقة ، أما هي فكانت تحلم أن تتسلق شجرة عالية وتجلس فوق القمة وسط العصافير والطيور، وقالت لها : « كان يريد أن يرقد في هدوء وسلام . أما أنا فكنت أرغب في الانطلاق والتألق وأن أرقص بلا قيود » .. بعد ذلك أخذا يلعبان الكرة إلى أن تضايق لينتون لأنها كانت تفوز عليه دومًا ، فأخذت تهدئ سورته . حتى لا يغضب . بعد انقضاء هذه الزيارة ، بدأت تفكر في الزيارة التالية .

وفي طريقها إلى منزل لينتون، التقت هاريتون الذي أخبرها في سعادة أنه قد تعلم كيف يقرأ اسمه ، فسخرت منه فوبختها إيلين لسوء معاملتها لهاريتون ، فاندهشت كاثي لذلك وانصرفت بعد ذلك جلست تقرأ مع لينتون . اقتحم هاريتون المكان ووجه لهما لومًا عنيفًا ، وأمرهما في غضب بالدخول إلى المطبخ ، ثم صعد إلى غرفته ، وانتابت لينتون حالة غضب شديد لكنه مكتوم . وصرخ وهو يرتعش أنه يود قتل هاريتون، ثم بصق دمًا وراح في نوبة إغماء . بحثت كاثي عن زيلا بينما حضر هاريتون بسرعة وحمل لينتون ليصعد به إلى غرفته ، ولكنه في الوقت نفسه منع كاثي أن تتبعهما . فبكت واعتذر لها لكنها ضربته بسوطها ، ثم انطلقت إلى بيتها على ظهر حصانها الصغير .

في اليوم الثالث ذهبت كاثي للاطمئنان على لينتون الذي وبخها بشدة لما حدث في الزيارة السابقة .. فانصرفت وقد قررت ألا تعود إليه مرة أخرى . وبالفعل نفذت هذا الوعد ؛ مما دفع لينتون للاعتراف أنه كان فعلاً فظًّا معها، وأنه لا يستحقها ، لكنه كان متأكدًا أن شخصية كاثي المرحة ستجعلها تصفح عنه . أسفت كاثي لأن لينتون بلغ هذا الحد من العصبية وسوء المعاملة ، ومع ذلك أكدت أنه مجرد صديق لها . وطبعًا كان لينتون قد أخبر أباه هيثكليف عن هذه الواقعة فعنّفه بغلظة. لكن حين التقى هيثكليف كاثي بعد ذلك تجنبها تمامًا .

أخبرت إيلين السيد إدجار بشأن هذه الزيارات ؛ فأمر كاثي بعدم الذهاب مرة أخرى إلى « مرتفعات وذرنج » ، ولكنه بعث برسالة إلى لينتون يخبره أنه يمكن الحضور إلى منزلهم في جرينج متى شاء !!

إن معظم أحداث هذه القصة الطويلة هي في الواقع ما بدأت إيلين تحكيه في البداية إلى السيد لوك وود ، المستأجر الجديد ! وقد نبهته إلى أن الأحداث الأخيرة هذه وقعت منذ عام مضى قبل حضوره. وقالت له إن كاثي أصبحت لا تحب « مرتفعات وذرنج » ، وقالت له هذا لما لاحظته من اهتمامه بها !! ثم عادت إلى سرد بقية الأحداث .

طلب إدجار من إيلين أن تصف له لينتون .. فأخبرته أنه شخص رقيق وصغير الجسم - بعكس أبيه - وأنه إن تزوج كاثي فيمكنها السيطرة عليه بسهولة . فقال لها إنه يشعر بالقلق لمصير كاثي إن مات هذا الولد . وعندما جاء الربيع ، بدأ إدجار معاودة رياضة المشي . ورغم أن كاثي كانت سعيدة لأن وجهه عاد إليه تألقه ودبت حمرة الدم في خدوده دلالة على الصحة الجيدة ، إلا أن إيلين لم تكن تتفق معها في ذلك .. كانت قلقة عليه . وقد

عاود الكتابة إلى لينتون ، يدعوه للحضور إلى بيته في جرينج . فرد عليه لينتون أن أباه رفض قيامه بهذه الزيارة ، لكنه يأمل أن يلتقي إدجار خارج جرينج في وقت ما . لم يكن إدجار مرتاحًا لأنه لم يكن يستطيع المشي حتى « مرتفعات وذرنج » ، ولكنه ظل يتبادل الرسائل مع لينتون . وكان يحاول ألا يشكو من أي شيء في رسائله ، لأنه كان يعرف أن أباه هيثكليف يقرأ هذه الرســـائل.

على أي حال ، سمح إدجار لابنته كاثي أن تلتقي لينتون عند المستنقعات ، ولكن تحت رقابة إيلين .. كان إدجار يتمنى أن تتزوج كاثي من لينتون حتى لا تغادر بيتها في جرينج إن مات لينتون ، ولكنه ما كان يعرف أنه ربما يموت هو قبل لينتون .

عندما ذهبت إيلين وكاثي للقاء لينتون ، كان عليهما السير بالقرب من مرتفعات وذرنج لمقابلته والذهاب ناحية المستنقعات ، ولكن التقتا به ووجدتاه في حالة مرضية شديدة ، على الرغم أنه ادعى التحسن ، كانت عيناه الزرقاوان الواسعتان تنظران إلى كاثي في وهنٍ شديد وإنهاك ، وقد ظهرت الهالات السوداء حول العينين دليل إرهاق مضنٍ مبالغ فيه .. وانطفأ بريق العينين .

لقد أمضى لينتون وقتًا عصيبًا وهو يحاول التحاور والتحدث إلى كاثي ، وكان من الواضح عدم استمتاعه بهذا الحوار. ولما أحست بحالته استأذنت كاثي في المغادرة ليستريح .. عندئذٍ نظر طويلاً في خوف شديد إلى « مرتفعات وذرنج » وطلب منها البقاء ، وأن تخبر أباه أن لينتون في حالة صحية لا بأس بها .. فوافقت دون اقتناع ، ثم غاب في نعاس طويل.

استيقظ فجأة وتنبه على خوف شديد خشية أن يحضر أبوه فجأة ، وبعد فترة عادت إيلين وكاثي إلى بيتها وقد ازدادت حدة القلق والحيرة على حال لينتون .

بعد أسبوع كان من المفروض أن تقوما بزيارة لينتون مرة أخرى ، ولكن المرض استبد بأبيها إدجار . فرفضت أن تتركه في حالته هذه ، لكنه كان حريصًا على توطيد علاقة كاثي ولينتون من أجل مصلحة ابنته .. وهناك استقبلها لينتون بمزيد من النشاط والحيوية . ولكنه كان نشاطًا يكتنفه الخوف من شيء ما ، وكانت كاثي حزينة لتركها أباه المريض ، كما اشمئزت من حالة الفزع التي أذلت لينتون .. وصل هيثكليف وبادر بسؤال إيلين عن عدد الأيام المتبقية في عمر إدجار . كان يخشى أن يموت ابنه لينتون قبل خاله إدجار ، ثم في حالة غضب أمر لينتون باصطحاب كاثي إلى داخل البيت .. فأذعن فورًا لأوامر أبيه . كما دفع هيثكليف إيلين إلى داخل البيت أيضًا وأغلق الباب ، وعندما اعترضت كاثي لرغبتها العودة للاطمئنان على أبيها ، صفعها بوحشية وأقسم أنها لن تغادر البيت قبل الزواج من لينتون . شعرت كاثي بكراهية شديدة متبادلة بينها وهيثكليف .

ظلت إيلين محبوسة على مدى خمسة أيام ، وكان هاريتون هو السجان . فقد كان يقدم لها الطعام ، لكن لا يتبادل معها أي حديث إلا ما ندر ، ولم تكن تعرف أي شيء عن كاثي .

وفي اليوم الخامس فتحت زيلا لها الباب ، وقالت إن هيثكليف سمح لها بالعودة إلى بيتها على أن تلحق كاثرين بها في وقت لاحق لحضور

جـنازة إدجار !! لم يكن قـد مات فعـلاً لكنــه كان على وشـك. سألت إيلين لينتون عن مكان كاثرين ، فأخبرها أنه أغلق عليها باب غرفتها إلى أن يتزوجا، وأضاف أنه سعيد لإساءته لها؛ لأنها رفضت الزواج منه ، وقد ازدادت سعادته حين أوسعها هيثكليف ضربًا. فنهرته إيلين لأنانيته وقسوته، ثم أسرعت إلى جرينج لمساعدة إدجار . فرح إدجار جدًّا حين عرف أن ابنته سليمة وفي مأمن وستعود إليه فورًا، كان قد بلغ التاسعة والثلاثين .. أما الرجال الذين ذهبوا إلى « مرتفعات وذرنج » لإنقاذ كاثرين، عادوا دونها وقد صدقوا كذب ادعاء هيثكليف بأنها كانت مريضة إلى حد عدم قدرتها على السفر . ولكن في صباح اليوم التالي عادت كاثرين مبكرًا إلى بيت أبيها وقد فرحت أنه لا يزال على قيد الحياة .. لقد أجبرت لينتون أن يقوم بتهريبها . فاستحلفتها إيلين أن تدعي أمام أبيها أنها سعيدة في زواجها من لينتون ، حتى يموت وهو مستريح ، فوافقت على ذلك . أمر محامي هيثكليف كل الخدم - عدا إيلين - باللحاق بالجنازة .

حضر هيثكليف إلى جرينج ليعود بكاثرين ؛ لكي ترعى ابنه المريض ، والذي يخاف من الموت إن بقى مع أبيه .. كما أضاف أنه سوف يستقبل مستأجرًا جديدًا لجرينج (وهو السيد لوك وود) . وافقت المسكينة كاثي على الذهاب ؛ لأن لينتون هو آخر من بقى في حياتها تحبه . وفي مزاج شاذ ، أخبر هيثكليف إيلين بما فعله في الليلة السابقة .. لقد قدم رشوة لحفار القبور ، الذي كان يحفر قبر إدجار أن يفتح له نعش كاثرين ليرى وجهها مرة أخرى، وفوجئ بأن وجهها لا زال كما هو . لكن حفار القبور أخبره أن الوجه قد يتغير بسرعة إن تعرض للهواء .. فابتعد هيثكليف على الفور .

وقدم رشوة ثانية للرجل على وعد منه أن يضع جثمانه بجوار جثمان كاثرين في النعش نفسه حين يموت .

شعرت إيلين بالاشمئزاز منه وعنّفته لانتهاكه حرمة الموتى ، فقال إن كاثرين كانت تطارده على مدى ثمانية عشر عامًا ، وإنه استراح جدًّا لما فعله في تلك الليلة .. ثم أخبرها أيضًا بما فعله في الليلة التي أعقبت دفن كاثرين حين ضرب هندلي ، فقد ذهب إلى مقابر الكنيسة وحفر قبر كاثرين وأخرج النعش واحتضنها مرة أخرى . ولكنه حين أعاد تثبيت المسامير ثانية أحس بحضورها فعلاً ، ورغم ارتياحه إلا أنه كان يتعـذب ؛ لأنه على مدى ثمانية عشر عامًا كان يراها لكن بغير وضوح ؛ وحاول النوم في غرفتها ثم فتح عينيه ليرى ما إذا كانت موجودة ، فإذا بها موجودة فعلاً ، وما أن انتهى من روايته حتى أقبلت كاثرين لتودع إيلين .

وصلت إيلين الآن إلى المنطقة المهمة في أحداث هذه القصة ، التي اشترك فيها لوك وود فعلاً .. لقد أخبرتها زيلا بما حدث الليلة السابقة لكاثرين الصغيرة في « مرتفعات وذرنج » .. فقد قضت وقتها كله في غرفة لينتون ، ولكنها خرجت لتطلب من هيثكليف استدعاء الطبيب لأن حالة لينتون تسوء .. ولدهشتها أنه أجابها : « أعرف ذلك ، ولكن حياته لا تساوي بنسًا واحدًا بالنسبة لي » . لذلك بقيت كاثرين وحدها لترعى ابن عمتها (حتى زيلا وهاريتون وجوزيف لم يقدموا لها يدي المساعدة) . وفي النهاية مات لينتون . وحين سألها هيثكليف عن مشاعرها في تلك اللحظة قالت : « لقد استراح ، وأنا حصلت على حريتي . لكن بما أنك تركتني وحدي أصارع الموت معه ، أصبحت لا أرى إلا الموت » . شعر هاريتون بالأسى من أجلها ، وسقطت كاثرين مريضة على مدى أسبوعين فأخبرها هيثكليف أن ابنه تنازل له عن كل ما يمتلكه وما تمتلكه زوجته كاثي .

ذات يوم ، وبينما كان هيثكليف خارج البيت ، نزلت كاثرين إلى الدور الأرضي فوجدت هاريتون الذي شعر بالخجل منها وحاول التقرب إليها لتصويب موقفه السابق معها لكنها رفضته .. وحين طلب منها أن تقرأ له ولزيلا رفضت تمامًا لأنها ما عادت قادرة على رعاية أحد بعد كل ما فعلت من أجل لينتون . واعترف هاريتون أنه طلب من هيثكليف تخفيف واجبات والتزامات كاثي لكنه رفض .. لذلك بقيت كاثرين على الحالة العصبية غير الودودة التي وجدها عليها السيد لوك وود ، حين حضر والتقى بها أول مرة . وقد قالت زيلا : « سوف تنهش وتعض في السيد، فتدفعه أن يجلدها ، وكلما تسبب في إيذائها ستزداد ضغينتها وكرهها له » ، وفيما بعد طلبت إيلين من هيثكليف أن يسمح لها أن تستأجر كوخًا صغيرًا تعيش فيه هي وكاثرين .. لكنه رفض !!

ذهب لوك وود إلى مرتفعات وذرنج لمقابلة هيثكليف وإبلاغه برغبته عدم البقاء في جرينج .. التقى هناك هاريتون ، وجده إنسانًا وسيمًا وريفيًّا طيبًا ، ثم قدم رسالة إلى كاثرين من إيلين ، فإذا بيد هاريتون تسبقه ويخطف منه الرسالة بزعم تقديمها إلى هيثكليف ليقرأها قبل أي شخص ولم تستطع كاثرين إخفاء دموعها من التأثر ، ولاحظ هاريتون هذا فأسقط الرسالة بجوار مقعدها . قرأت الرسالة وأعلنت عن اشتياقها للحرية؛ لأنها حتى ممنوعة من الكتابة إلى إيلين بعد أن مزق هيثكليف أوراقها وكتبها . وقالت له إن هذه الكتب كانت مهداة لها من جمعيات مختلفة ، وقد كرهت اللحظة التي قام فيها بتمزيق هذه الكتب بأسنانه ويده ، بينما أنقذ هاريتون بعضًا

منها وألقي بها في حجرها .. كانت تتعمد القراءة بصوت خافت وبطيء كأنها قراءة المبتدئين ؛ مما كان يغضب هـــاريتون أحـــيانًا.

وصل هيثكليف فانصرف هاريتون ليخفي حزنه وغضبه ، وألح هيثكليف إلى لوك وود أن هاريتون يذكره بكاثرين أكثر من هندلي .. ثم أعلن له إذا كان يريد أن يترك البيت في جرينج فعليه أن يدفع الإيجار كاملاً مهما حدث ، وإزاء هذه المهانة وافق لوك وود مرغمًا . دعا هيثكليف لوك وود على العشاء ، ولكنه أمر كاثرين أن تتناول عشاءها مع الخادم جوزيف في المطبخ !! أنهى لوك وود عشاءه دون شهية ، وانصرف ليتحين الفرصة للتودد إلى كاثرين والابتعاد بها عن هذا المكان إلى جو المدينة الصاخب والمثير .

في خريف عام 1802 ، كان لوك وود في رحلة صيد قريبة منجرينج فذهب إلى البيت ووجده خاليًا .. فقد تركت إيلين البيت وذهبت إلى «مرتفعات وذرنج» ، وحلت محلها امرأة عجوز . فدفعه فضوله لزيارة وذرنج ليرى ما حدث من تغيرات . فاكتشف وجود ورد وأزهار تحيط بالبيت . والمزرعة ، ثم ترامي إلى سمعه صوت امرأة تقوم بالتدريس داخل البيت كان صوت كاثرين .. صوت فيه حلاوة رنين الأجراس الفضية . كانت تلقن درسًا لهاريتون الذي كان يرتدي ملابس جميلة ومحترمة . وكان الدرس مدعمًا ببعض القبلات والكلمات الطيبة المشجعة . لم يرغب لوك وود في إزعاجهما ، فاتجه إلى المطبخ فوجد إيلين تغني ، بينما وقف جوزيف يشكو ويتبرم كعادته . وما أن شاهدت إيلين لوك وود حتى قابلته بفرحة شديدة وأخبرته أن بوسعه تسوية مسألة إيجار البيت معها هي ، حيث

أصبحت وكيلة كاثي وممثلة لها ، فقد مات هيثكليف منذ ثلاثة أشهر مضت . ثم أخذت تحكي له وقائع ما حدث !

بعد انقضاء أسبوعين بعد رحيل لوك وود المرة السابقة في الربيع، تم استدعاء إيلين إلى « مرتفعات وذرنج » . وكانت سعيدة لأن مهمتها الأولى كانت الحيلولة بين كاثرين وهيثكليف ، وكانت سعيدة لرؤية كاثرين .. ولكنها لم تكن سعيدة بالطبع للتغيرات التي طرأت على هذه المسكينة آنذاك . ذات يوم كانت كاثرين وإيلين وهاريتون يجلسون في المطبخ ، شعرت كاثرين بالملل لتفاقم حالة العداء بينها وبين هاريتون ، فأهدته كتابًا ولكنه رفض أن يلمسه . وفي وقت لاحق أصيب هاريتون بطلق ناري في حادث في ذلك الربيع ، ولم يكن هيثكليف يطيق رؤيته مما دفعه للبقاء في المطبخ ؛ فبذلت إيلين قصارى جهدها للتوفيق والمصالحة بين هاريتون وكاثرين ، ونجحت في ذلك وأصبحا صديقين حميمين ، رغم تبرم جوزيف من هذه المصالحة !

صباح اليوم التالي عثرت إيلين على كاثرين وهاريتون يزرعان حديقة أزهار وورد وسط شجيرات العنب التابعة لجوزيف ؛ فحذرتهما أن هذا الأمر سيعرضهما للعقاب ، ولكن هاريتون قال إنه المسئول عن ذلك وهو الذي يلام . وأثناء تناول الشاي، كانت كاثرين حريصة على تجنب الكلام الزائد مع هاريتون ، ولكن حدث أن وضعت له بعض الأزهار في طبق الطعام ، مما جعله يضحك ، فغضب هيثكليف وادعى أن كاثرين هي التي ضحكت ، ولكن أعلن هاريتون بهدوء أن الغلطة غلطته هو . فجأة دخل جوزيف يبكي ويولول على ما أصاب شجيراته ، فاعترف هاريتون أنه هو الذي اقتلع بعضها ، وتعهد بزراعة غيرها مرة أخرى . ولكن كاثرين

اعترفت أنها هي التي حرضته على ذلك ، فتزايد غضب هيثكليف وانفجر فيها قائلاً : « إنها حقيرة متغطرسة وامرأة بغي » . فانفجرت فيه واتهمته بسرقة أرضها وأرض هاريتون .

في سورة غضبه أمر هاريتون أن يلقي بها إلى الطريق ، ولكن الشاب الذي اختار بين ولائه لهيثكليف وولائه لها ، حاول إقناعها بالإبتعاد . كان هيثكليف على استعداد لتمزيق كاثرين إربًا ، ولكنه فجأة هبط عليه هدوء غريب ، وطلب من الجميع أن يتركوه وحده ! فيما بعد حذر هاريتون كاثرين من توجيه أي اتهام لهيثكليف أمامه هو شخصيًا . كانت كاثي متفهمة لوضعه الحرج فوعدته بذلك . شعرت إيلين بسعادة لا مثيل لها لرؤيتها لطفليها وهما سعداء معًا ؛ فقد بدا هاريتون في حالة من الكد للتخلص من جهله وفقره (المحدود) وعادت كاثرين إلى جمالها وتألقها مرة أخرى . وحين رآهما هيثكليف معًا ، أخبر إيلين أنه يرى فيهما محبوبته كاثرين ، وأضاف أنه بدأ يشعر بالتخلص من الرغبة في تدمير الآخرين وإيذائهم ! وكان يسعى للتبرع للجمعيات الخيرية باسم محبوبته كاثرين .. لكنه كان متأكدًا أن هاريتون يشبهه تمامًا في شبابه .

الشيء اللافت أن حبيبته كاثرين أصبحت ملازمة له وتسيطر عليه تمامًا. إن كل شيء في هذا العالم وكل الذكريات تؤكد أنها لا زالت تعيش وأنه افتقدها تمامًا . وقال لإيلين في هدوء وحزن إنه يتوقع تغيرًا ما ، وإنه ما عاد يعيش في هذا العالم الحي ، بل قريب جدًا ولصيق بعالم الموتي أو الخلود ! تعجبت إيلين من كلامه وظنت أنه مريض ، ولكنها متأكدة أنه في صحة جيدة وحالة عقلية ممتازة، فيما عدا اكتئابه من هذه الحياة !

في الأيام القليلة التي تلت هذا الموقف ، بدأ هيثكليف يزهد الطعام ، وكان يمضي لياليه في التجول خارج البيت ، وحدث أن كانت كاثرين تعمل سعيدة في حديقتها واندهشت لأنه اقترب منها بهدوء ونظر إليها في سعادة وانتشاء ؛ فتوسلت إليه أن يأكل شيئًا . في العشاء قدمت إليه بعض الطعام ، ولكنه لم يستطع أن يأكل أي شيء ، وقد فقد شهيته للأكل تمامًا ، ثم نظر تجاه النافذة وقام في هدوء وخرج إلى الحديقة كالمأخوذ ، فاتبعه هاريتون ليطمئن عليه ، ولكنه توسل إليه أن يعود إلى كاثرين وألاَّ يزعجه مرة أخرى .

عاد هيثكليف بعد ساعتين ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح السعادة والارتياح رغم أنه كان يرتجف بشدة ؛ فسألته إيلين عما أصابه فقال لها إنه كان على بعد خطوات قليلة من العالم الآخر . وفي مساء اليوم ذاته ، دخلت إيلين غرفته فوجدته يجلس في الظلام بينما كل النوافذ مفتوحة على مصارعها فانتابها الخوف من شحوب وجهه وسواد عينيه .. لقد ظنت أنه الشيطان ! في اليوم التالي بدا قلقًا على غير العادة ، ولم يكن قادرًا على الكلام . وكان يحدق مأخوذًا في اللاشيء وكان يبدو عليه تعبير الفزع والنشوة معًا

في اليوم التالي طلب استدعاء محاميه لتسوية بعض الأمور ؛ فوعدته إيلين، ولكن توسلت إليه أن يأكل أي شيء وأن ينام بعض الوقت. لكنه أجاب أنه ما عاد قادرًا على الاثنين : الطعام والنوم ، فطلبت منه التكفير عن خطاياه فأجابها أن هذا ما يفعله ، ثم استحلفها أن تتأكد أنه قد تم دفنه بجوار كاثرين ! « لقد وصلْتُ إلى العالم الآخر وما عاد لأي شيء قيمة » . بعد ذلك أخذ يتحدث إلى حبيبته كاثرين بوضوح ، فاستدعت إيلين

الطبيب ، لكن رفض هيثكليف أن يلتقي به . وفي اليـــوم التالي وجدته في غرفته وقـــد فارق الحياة ! كان يجلس بجوار النافذة المفتوحة مبللاً بالمطر وقد جرحت يداه من أثر سقوط زجاج النافذة عليها ، وكانت عيناه مفتوحتين بشكل مخيف وارتسمت على وجهه ابتسامة متوحشة!! حزن هاريتون عليه بحق . وتساءل الطبيب في دهشة عما قتله؟

تم دفن هيثكليف تمامًا كما أراد ، وأشاع الناس أن شبحه كان يجول حول منطقة المستنقعات بصحبة كاثرين . وذات يوم مرت إيلين بصبي يبكي وسط أغنامه الفزعة ، لأنه قد رأى هيثكليف وبصحبته امرأة يجلسان هناك ، فلم يستطع أن يتوجه ناحيتهما .

تم زفاف كاثي وهاريتون ، وعادا للسكن في بيتها في جرينج ، تاركة وراءها «مرتفعات وذرنج» لجوزيف والأشباح !

* * *

أوجيـن أونيـل

Eugene O'Neil

مسرحية

ما وراء الأفق

Beyond The Horizon

الفصل الأول

تدور أحداث هذه المسرحية الاجتماعية في العشرينيات من القرن العشرين ، وتبدأ الأحداث في دار السيد چيمس مايو ، المزارع المعروف بخبرته الطويلة في الزراعة ؛ الأمر الذي أحال مزرعته الصغيرة إلى أفضل مزارع المنطقة . يساعده ابنه أندرو الشاب ذو السابعة والعشرين ربيعًا ، والذي تعتمد عليه الأسرة كثيرًا في أعمال المزرعة كاملة ، عكس شقيقه روبرت البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة والذي يميل كثيرًا لحياة التأمل ومتعة القراءة وربما الكتابة أحيانًا.

المنظر الأول من الفصل الأول تدور أحداثه كاملة داخل بيت الأسرة المطل في جانب منه على الطريق الريفي وبعض التلال المتناثرة وسط الحقول الخضراء الممتدة، وتبدو هذه التلال وكأنها محدودة عند قمتها بخط الأفق . تبدأ الأحداث بالابن روبرت مايو (23 سنة) ، يجلس على كرسي هزاز يتأمل بعمق هذه التلال وخط الأفق الذي يحدها .. وربما لا يشعر روبرت بمقدم شقيقه أندرو (27 سنة) الذي يختلف عنه كثيرًا ، فهو شاب متدفق الحيوية نشيط عملي جدًّا وواقعي، وهو الذي يساعد في أعمال المزرعة ويبدو أنه على علاقة بالفتاة الجميلة روث أتكنز ابنة الأرملة مسز أتكنز ، صاحبة المزرعة المجاورة لهم .

كان أندرو أو آندي يحب شقيقه روبرت أو روب حبًّا حقيقيًّا ، ينادي عليه فلا يسمعه فيخطف من يده الكتاب ويسأله عما به ، يجيبه روبرت أنه بدأ يتمسك بفكرة السفر إلى بلاد الشرق ، أي ما وراء ذاك الأفق البعيد ..

هناك بلاد جديدة وعالم جديد يريد أن يعيش بين ناسه يكتشف فيهم ما قد يجعله يخرج من هذه القوقعة التي يعيش فيها ، كما أنه يريد السفر على سفينة خاله كابتن ديك سكوت ربما يساعده هواء البحر العليل على الشفاء من مرضه الذي جعله حبيس الدار ، ويقسم لشقيقه أنه لولا هذا لبقى بينهم على الأقل ليساعد شـقيقه أندرو في الزراعة ، ويجـيبه أندرو أنه - أي شقيقه روبرت - لا يحب الزراعة كمهنة ولا يحب حياة المزرعة بصفة خاصة .. أما أندرو فيبدو وكأنه قد تزوج من هذه الأرض وأصبح نبتة من نباتها ؛ لذلك قرر روبرت السفر مع خاله صباح اليوم التالي مباشرة .

بينما يرى أندرو أنها فرصة طيبة ليتعلم شقيقه مهنة الملاحة من خاله فربما عمل ضابطًا على سفينته، كما أن هذه البلدان بها فرص عمل تربح أرباحًا كبيرة لأنها مناطق خصبة.

لكن روبرت الذي ينظر دائمًا إلى خط الأفق ، يقسم له إنه ما قرر السفر لهذه الأسباب ، ولكن لهذا السحر والجمال الذي يناديه ، سحر الشرق وجاذبية الشرق ومتعة السفر الدائم للبحث عن الأسرار المختفية وراء الأفق . يضحك أندرو ويرجوه ألا يُحدِّث خاله البحار أنه مسافر بحثًا عن السر فيما وراء الأفق ، وإلا ألقى به من سطح السفينة. ويستعد الشقيقان للذهاب لتناول الغذاء مع الأسرة مجتمعة كلها قبل سفره في اليوم التالي . وهنا يسأله روبرت السؤال الرهيب الذي تدور حوله كل هذه المسرحية : «هل ستحضر روث هذه المأدبة ؟ » وهنا يدرك أندرو أبعاد هذا السؤال. ويقف في مواجهة أخيه روبرت ، الذي يحاول أن يهرب من نظرات شقيقه . لكن أندرو ذكي وواقعي وعملي أيضًا . إنه يشعر أن هناك بعض المشاعر الداخلية والخفية التي تجذب روبرت إلى روث .. لكن روث إلى حد ما

مرتبطة بأندرو ، والكل يعرف ذلك . على أي حال يجيب أندرو على سؤال شقيقه روبرت : « نعم ستحضر روث مأدبة الغذاء » . تتهرب نظرات روبرت من أندرو .. عندئذٍ يطلب منه أندرو في بساطة ومرح أن يسبقه إلى حيث المأدبة إلى أن يغتسل من تراب المزرعة ويغيّر ملابسه ويلحق بهم . وينصرف أندرو .. لكن سرعان ما تحضر روث لتحث الشقيقين على الحضور إلى غرفة الطعام .. لكن ما أن تجد روبرت وحده حتى تتبدل مشاعرها تمامًا وينبض قلبها وربما ترتجف .

تفرح روث لرؤية روبرت وحده ، وكذلك يفرح روبرت لرؤية روث وحدها !! وتقول له : « كنت أبحث عنـك » . فيجيبها أن أندرو قد ذهب لتوه ليستعد للغذاء فتجيبه روث أنها علمت بمكانه من أندرو الذي قابلها لتوه ، وتقول في إصرار : كنت أبحث عنك أنت وليس عن آندي ، وتخبره أنها أحضرت معها أمها التي جاءت لتودعه قبل سفره .. إنها تعيش وحدها مع أمها العجوز المريضة ، ويقومان معًا بالعمل في مزرعتهما .. إنها تود أن ترحل إلى أي مكان مثل روب ؛ فيقول لها: إن البقاء صعب والرحيل أصعب !

وهنا تفتح روث قلبها وتتحدث بصراحة وجرأة ، وتسأله : لماذا لم يخبرها بأمر رحيله ؟ ويجيب أنه ربما تردد وربما خاف ألا تفهم دوافعه في الرحيل ويشرح لها الأسباب التي دعته إلى هذا القرار الصعب .. مثل تأمل الأفق وما وراء الأفق وسحر الشرق . وتعجب روث بكلام روب وفلسفته وعمق تفكيره . لكنه يقسم لها أن هناك سببًا آخر للسفر ويخشى أن يخبر به أحدًا . السبب الخفي أنه يحب روث .. إن اكتشافه هو لحبه لروث جعله يشعر بحب آندي لها . وبالتالي لابد أنها تحب آندي بالمثل . وتفجر روث

مفاجأة مثيرة حين تعترف له أنها لم تحب آندي قط. وأنها كانت تحبه هو فقط، وأنها كانت تذهب معه في كل مكان لأن آندي كان لا يذهب معها إلى أي مكان ولا يهتم بها .. وحين ذهب إلى الجامعة لمدة عام خافت أن يكون قد استبد به الغرور ، فمنعها كبرياؤها من التواصل معه . لكنها تقسم له أنها تحبه وترجوه ألا يسافر وإلا تحطم قلبها وتحطمت حياتها. تتغير مشاعر روب ويتغير تفكيره .. ورغم اتفاقه مع خاله ديك سكوت على السفر والترتيبات والإجراءات التي تمت ، إلاّ أنه يشعر بأن حب روث أهم من أي شيء في العالم ، وأهم من أحلامه وشوقه لسحر الشرق ورغبته في اكتشاف ما وراء الأفق . وأنه سيعلن هذا على جميع أفراد العائلة المجتمعين الآن .. ولابد أنهم سيفرحون جدًّا لعلاقة الحب هذه ، ويمسك بيدها ويسرعان ، بل يطيران لإعلان هذا النبأ المهم لأفراد العائلة !!



في المنظر الثاني من الفصل الأول ، وفي غرفة الجلوس في دار المزرعة التي تمتلكها أسرة چيمس مايو ، الأسرة كلها مجتمعة .. الأب چيمس مايو، وزوجته أم الولدين وشقيقها البحار الكابتن ديك سكوت وأندرو عدا روبرت . الأسرة كلها مشغولة بأمر سفر روبرت في صباح اليوم التالي ، ورغم أن الأب لا يرغب في سفر ابنه إلا أنه يرى فائدة له في هذا السفر ؛ خاصة أنه يكره حرفة الزراعة والعمل في المزرعة فربما يروق له العمل في البحر . وهنا يتحدث الخال سكوت عن عظمة وأهمية السفر للإنسان . وكيف أن الأخطار تجعل من الإنسان رجلاً بحق ! هذا غير متعة التأمل والراحة والصحة .

وتطلب منه شقيقته ألا يأخذ ابنها معه . لكن يجيب أندرو بأنه حاول إقناع أخيه بعدم السفر لكن دون جدوى ، فلم يره بمثل هذا الإصرار من قبل !! لكن الكابتن ديك سكوت يضيف بأن أندرو هو أصلح إنسان لحياة البحر .. لكن أباه چيمس مايو ينهر سكوت بشدة لهذه الأفكار ؛ لأن أندرو هو عماد هذه الأسرة وهو الحياة بالنسبة للمزرعة ولا يمكن الاستغناء عنه مطلقًا . وهنا يخرج أندرو من غرفة الاستقبال بزعم قضاء مصلحة ما .. ويلاحظ الجميع شرود أندرو .. إنه على غير عادته في ذاك اليوم . ويرى أبوه أن السبب طبعًا شعوره بالضيق لسفر أخيه الذي يحبه كثيرًا . ويؤكد كابتن سكوت أنه متعلق بأخيه جدًّا ، بينما ترى الأم أن السبب شيء آخر ، ربما هو روث !!

يحاول الأب مايو أن يلطف الحديث ويعلق أنه يتمنى زواج أندرو من روث ، على الأقل ليضمن ضم المزرعتين المتجاورتين معًا : مزرعة مسز أتكنز الأرملة المريضة وأم روث ، ومزرعة أسرة مايو ، وأن أجدر إنسان لإدارة العمل في المزرعتين وبنجاح هو أندرو ، الذي أصبح بمثابة كل شيء بالنسبة لأبيه وللأسرة وللمزرعة ! لكن السيدة «مايو » لا زالت على انشغالها بأمر آندي ، وتعلق بأنها تشعر كأم أن روث لا تحب آندي . فيتهمها زوجها « چيمس مايو » بأن لها أفكارًا غير منطقية . لكن عندئذٍ يدخل روبرت سعيدًا جدًّا ، بل يكاد يطير من الفرحة ليعلن لهم جميعًا بأنه أخيرًا عثر على الحب الكبير في حياته . في تلك اللحظة يعود أندرو إلى المكان المستتر من الغرفة لكن دون أن يشعر به أحد ، ويقف في أحد أركان الغرفة ليسمع روبرت الذي يعلن للجميع أنه يحب روث ، وأن روث

تبادله هذا الحب منذ زمن بعيد. لذلك فقد قرر عدم السفر ؛ فالحب عنده أهم من أي شيء آخر . يفاجأ الجميع بهذا الخبر ! ويختلف رد فعلهم تجاهه ؛ فالأم سعيدة فقط لأن ابنها لن يسافر مع خاله وهذا هو المهم بالنسبة لها . لكن الأب يرى أن أمر روبرت أصبح محيرًا ؛ إذ أين كان من هذا الحب؟! ولماذا اكتشفه الآن فجأة ؟! ولكنه يصافحه ويقول له إنه سعيد لعدم سفره . وأن روث فتاة طيبة ، ويفاجأ الجميع بخروج أندرو من مكانه متجهم الوجه ، فينزعجون جميعًا لأنهم لم يتوقعوا عودته ولم يلاحظوا ذلك .. حتى روبرت يشعر بخجل شديد وارتباك. يتجه أندرو إلى روبرت وهو حزين ويحتضنه ويقبله ويهنئه .. ويرى روبرت الألم العميق في عيني شقيقه آندي الذي يعود منزويًا وحزينًا إلى مكانه .

يعتذر روبرت لخاله ديك سكوت عن عدم السفر معه ويتعهد لأبيه أن يبدأ معه حياة جديدة وينضم إلى المزرعة مثل شقيقه آندي الذي سيتعلم منه الكثير . ويقول الأب إنه سعيد بهذا الكلام ، ويرجو أن يهتم روبرت بأن يتعلم من أخيه كل شيء لأنه لا يعرف أي شيء على الإطلاق عن العمل في المزرعة . هنا على غير توقع، يثور كابتن ديك سكوت على الأب ويتهمه بأنه أب متساهل وضعيف الإرادة لسماحه لروبرت وفتاته أن يرسما له الطريق الذي يسير فيه ؛ فيقول السيد مايو إنه وكما لا يتحكم في المد والجزر .. فكيف له أن يتحكم في تنظيم الحب بين الشباب . إن ديك سكوت حزين لأنه أعد العدة لصحبة روبرت له في هذه الرحلة ، وأنه قد أعد له برنامج تدريب وعمل ، وأنه يشعر بالحزن لذلك . ثم يثور مرة أخري لأنه أعد له قمرة خاصة ، ودهنها بلون أبيض جميل واشترى لها أثاثًا وأغطية جديدة وأعد له

مكتبة وزودها بالكتب التي يحبها ، كما وضع أمامها حاجزًا متحركًا يمنع الكتب من السقوط عند اهتزاز السفينة .. إنه جد حزين خاصة لما سيقوله البحارة عنه . هل أعد هذه القمرة لامرأة يحبها ورفضت المجيء معه ؟! فيداعبه السيد مايو بأنه لا زال أمامه الوقت ليتزوج ويصطحب زوجته معه في تلك القمرة . وفي غمرة حزن ديك سكوت ، يفاجأ الجميع بصوت أندرو الحزين يعلن لخاله إنه هو من سيشغل هذه الغرفة !! نعم لقد قرر أن يسافر غدًا معه ! كان هذا القرار أصعب قرار على آندي وأبيه چيمس مايو .. ولأن روبرت يعرف ذلك ويعرف أن أخاه لا يتراجع أبدًا عن قرار قد اتخذه ، فإنه يرجوه ألا يسافر حفاظًا على الأسرة . لكن أندرو يجيبه بحزم وبحسم : «أنت اتخذت قرارًا يا روبرت ولم يراجعك أحد فيه .. فدعني إذًا أختر قراري » !! ويهم بمغادرة الغرفة لتجهيز ملابسه وأغراضه . لكن الأب ، وفي انزعاج حقيقي ، يوقفه ويرجوه ألا يسافر وألا يترك المزرعة ، فمن يعاونه وهو في مثل هذا العمر .. ومن يقوم بالعمل ولا أحد سواه يفعل ذلك . لكن أندرو - الحزين المنكسر الوجدان - لا يستجيب لرجاء أبيه وتوسلات أمه ، فينفجر الأب غاضبًا ويهاجم أندرو ويسبه ويلعنه . ورغم تدخل الجميع لإنقاذ الموقف ، يواصل الأب ثورته العارمة على ابنه الذي يتخلي عنه ، بل ويطلب منه مغادرة البيت والمزرعة . وبهدوء وحزن يخرج أندرو ليجهز حقيبته ليسافر مع خاله فجر اليوم التالي !!

وتنتهي هنا أحداث الفصل الأول ، العنيفة والعاتية مثل الموج !

* * *

الفصل الثانى

يبدأ المنظر الأول من الفصل الثاني في غرفة الجلوس نفسها في منزل المزرعة في الساعة الثانية والنصف ، في يوم شديد الحرارة في منتصف الصيف وبعد مرور ثلاث سنوات كاملة من الأحداث السابقة .. إن الغرفة لم تعد كما كانت من قبل . الأثاث نفسه موجود ، ولكن الإهمال والزمن تركا بصمتيهما على كل شيء . حتى على السيدة مايو التي تبدو كأنها عجوز مسنة هرمة ، والسيدة أتكنز تجلس على كرسي متحرك وقد تمكن الشلل منها .

مات السيد چيمس مايو منذ سنتين ، وأصبحت مزرعة مايو ومزرعة السيدة أتكنز في انهيار دائم ومستمر .. لقد تزوج روبرت من روث، وأنجبا الطفلة ماري ، التي جاءت إلى الحياة معتلة الصحة مثل أبيها. وحتى روبرت ازداد المرض عليه . ورغم مرور ثلاث سنوات من سفر أندرو لا زال يجهل الكثير عن عالم الزراعة .. إنه يحاول أن يتعلم لكن لا فائدة .. المزرعة في انهيار وكذلك مزرعة السيدة أتكنز . وروبرت لا يفصح لأحد عن مشكلاته ولا عن همومه وهموم المزرعة بعكس روث التي تتحدث دائمًا مع أمها عن كل شيء . لقد بدأت روث تشكو من روبرت كثيرًا وتضجر منه .. فلا هو يعرف كيف يدير المزرعة، ولا كيف يحافظ على بيته أو حتى يحضر في مواعيد الغذاء ؛ ليُشعر أسرته بوجود رجل يلتفون حوله . وتهمس السيدة أتكنز في أذن السيدة مايو ، نقلاً عن روث ، بسر خطير جدًّا :

إن روبرت قد أخبرها أنه مضطر إلى رهن المزرعة ، ولا يعرف كيف يستمر في عمله وحياته حتى موسم الحصاد دون هذا الرهن ؟ وتظن

السيدة أتكنز أن السيدة مايو سوف تثور لهذه الفضيحة وهذا الانهيار ، لكن السيدة مايو بعد أن استبد بها اليأس من الحياة مثلهم ، لا ترى في الأمر ما يخيف وأن على روبرت أن يفعل ما يراه هو !

إذًا ما عاد هناك أمل في عودة أندرو في ذلك الوقت . إن أندرو سيعود فعلاً بعد ثلاث سنوات قضاها في السفر والترحال ، وظل يعمل ويترقى حتى أصبح برتبة ضابط أول في السفينة « سندرا » التي يملكها خاله سكوت .. لابد أنه قد تعب من حياة السفر والبحر ، وأنه يشتاق للعمل في مزرعة أسرته .. فهكذا كتب لأخيه روبرت. وترى الأم مايو أنه سيعود في اللحظة المناسبة ، وكم كانت تتمنى أن يصفح أبوه عنه قبل موته . وتعلق السيدة أتكنز أن چيمس مايو لا يمكن أن يتراجع عن قرار اتخذه ، وأنه لا يمكن أن يصفح عن آندي . تثور الأم وتقول إنه لابد أن يكون قد صفح عنه لكن عناده جعله لا يعلن ذلك . ولا تتردد السيدة أتكنز أن تعلن عن حزنها على الطفلة ماري التي ورثت المرض عن أبيها ، وترى أن زواج روث من روبرت كان غلطة كبيرة وقد عارضتها في أمر هذا الزواج في حينه ، ولكن روث كانت متعلقة جدًّا بأفكار وشاعرية ورومانسية روبرت . كم تمنت أمها أن تتزوج من أندرو!!

تحضر روث من المطبخ وتحمل ابنتها ماري ذات العامين .. إن الابنة الصغيرة مريضة وفقد وجهها نضارة وجه طفلة . كما بدا وجه روث وقد فقد شبابه وحيويته وأصبح معبرًا عن القسوة والضغينة ؛ أمها ترى أنها تفني حياتها في المطبخ والبيت من أجل زوجها ، ولكنه لا يهتم بها ولا يحضر حتى لتناول غذائه معهم . ترجوها روث التوقف عن هذا الكلام الجارح ، وأن يتحدثا عن شيء يدعو للسعادة . ألم تكن تتحدث عن أندرو منذ

لحظات !! لقد أصبحت سيرة أندرو هي الشيء الوحيد الذي يجعل روث تشعر بالفرحة ، وأصبحت على يقين أنه هو الوحيد الذي يعرف كيف يدير المزرعة ويوفر للأسرتين المال والثروة، ويعيد إليهم جميعًا البهجة. إن آندي هو الأمل لهم خاصة روث . وتخرج السيدتان مايو وأتكنز .

تبقى روث وحدها مع طفلتها ، وتتلفت حولها وتبحث عن شيء ما. وتعثر على إحدى الخطابات التي سبق أن أرسلها آندي ، وتعيد قراءتها في سعادة وتألق وكأنها تستعيد ذكرياتها معه . عندئذٍ يعود روبرت ويدخل إلى الغرفة ، لقد تحول إلى إنسان هزيل وشاحب وضعيف .. استبد به المرض والهم ، برزت عظام وجهه ، وثقلت خطواته . تحاول روث في حركة غرائزية أن تخفي خطاب أندرو .

لكنها تتراجع في تحدٍّ وجرأة .. تجلس ومعها الخطاب صراحة .. يحاول روبرت أن يقبّلها لكنها تدفعه بعيدًا في كراهية وتنهره لأنه لم يحلق ذقنه ، فيتحول عنها إلى ابنته الصغيرة يداعبها ويلعب معها . ربما تغار روث من اهتمام روب بابنته .. لقد أعدت له الطعام ، ولكنه لا يشعر بالجوع فتتشاجر معه ، فتبكي الطفلة وتهددها أمها بالضرب . فيصرخ روب في وجهها ويحذرها من تهديد ابنته بالضرب فيتشاجران. جو سخيف وكئيب وحالة من الكراهية المتبادلة والخلافات تتفاقم، والفقر يتسلل والضيق يستبد !

حتى حين تهدأ الأمور قليلاً ويجلس روب ليستريح ويقرأ كتابًا ، تسخر روث من هذه العادة السخيفة ، ولأنه يفضل القراءة على تناول الطعام الذي تعبت في إعداده وقد أصبح باردًا . يعتذر روبرت عن ذلك ويشرع في الأكل بتراخٍ فتنذره روث إن تأخر في مواعيد العشاء فلن تطهو له شيئًا بعد الآن .. فيبتسم لها باستسلام ويقول لها: « إذًا أنزلي على عقابك يا روث



ودعي الطعام يبرد ولا تبالي بي !! » يحاول روبرت تهدأتها كأنه هو المتهم بهذا الانهيار كله ، فيذكّرها بالماضي الجميل الذي عاشته معه ، ويعرف أنها أصبحت متعبة ومرهقة نتيجة لما أصاب الأسرتين .. لكنه يرجو أن تتعاون معه كما كان يحدث في الماضي ، فتعده بالمحاولة .

عندئذٍ يدخل أحد عمال المزرعة واسمه « بن » ليعلن لروبرت أنه سيترك العمل في المزرعة ؛ لأنه لم يتسلم أجره ، كما أنه أصبح موضع سخرية زملائه لاستمراره في العمل في هذه المزرعة المزرية الفقيرة .. كما أنه قد توقفت آلة الحصاد عن العمل وفشلت كل محاولات إصلاحها ، ويخرج بعد أن أعلن أنه سيترك العمل في المزرعة ! هنا يستدير روبرت إلى روث ، ويقول لها في ضعف وهوان: « أرأيت؟! هذا مثال صغير لما يحدث كل يوم !!».

إذًا لم يعد هنالك أمل إلا عودة « آندي » ! يعاود روبرت الحلم القديم بالسفر ، لكنه يسخر من خطابات أندرو ومن رؤيته لعالم الشرق الساحر . وسخريته من بعض البلدان الصغيرة مثل سنغافورة. هنا تنفجر روث بغير تحفظ أو حياء من روبرت ، وتقول له صراحة : «لا تسخر أبدًا من أندرو .. أنت دائم السخرية منه ، وأنا لن أسمح لك بذلك .. أنت تغار منه لأنه جعل من نفسه رجلاً بينما أنت لا قيمة لك !!». لقد أصبحت روث تكره روبرت جدًّا ولا تقيم له أي وزن لدرجة أنها تعترف له : « نعم أحب آندي » ! يثور روبرت ويتشاجر معها ؛ فتستيقظ الطفلة ماري ، وتهرول نحو أبيها مذعورة ، ولا ينقذ الطفلة من هذا الفزع إلا صوت عربة تجرها جياد . فيتوقفان عن المشاجرة ، وينصتان ، فإذا بصوت أندرو ينادي عليهم. تفرح روث وتجري إلى الباب لتستقبله وتعانقه لكن « روب » ينهرها بقوة ، ويأمرها أن تذهب إلى غرفتها ، فتخاف روث فعلاً ، وتلتزم

بالأمر . ويهم روبرت بالخروج وهو غاضب ومتألم .. لكنه يتظاهر بالفرحة، ويخرج مرحبًا بأخيه .

* * *

يبدأ المنظر الثاني من الفصل الثاني في منطقة التلال وسط المزرعة في الحادية عشرة صباح اليوم التالي ، يجلس روبرت في حزن شديد ويتأمل التلال والبحر الذي وراءها ومعه ابنته وحبيبته ماري تلعب بعروستها . ويظهر ذلك الارتباط القوي بين روبرت والصغيرة ماري، ويسألها : هل تحبين أن يذهب أبوك في رحلة بعيدة ؟! فتبكي وتقول له : « لا .. لا .. لا»، فيحتضنها في تأثر . يصل أندرو ويصعد التل ويلعب بفرح مع ابنة أخيه ، ويقول لروبرت إن صعود هذا التل ذكّره بالأيام الجميلة حين كان روبرت يصعد إلى التل يتأمل ويحلم .. يجيبه روبرت أنه يصعد إلى هذا التل الآن لأنه المكان الوحيد الذي يمر به الهواء البارد ، أما الأحلام والتأملات فقد نسيها.. هذا الكلام تسبب في ألم لأندرو . إنه لا يصدق ما آلت إليه الأمور، ولكنه يظل يحكي لروبرت عن رحلاته وسفرياته وعن الإعصار الذي كاد يهلك فيه بالقرب من الصين . ويؤكد له أن الشرق الذي كان يحلم به ليس إلا بعض البلاد الصغيرة التي تثير الاشمئزاز . وهنا يرمقه روب بنظرة اشمئزاز .. كان أندرو يؤكد له أن سيدني في أستراليا وبوينس أيرس في الأرچنتين هما أفضل البلاد التي زارها .. وأن فرص العمل في بوينس أيرس كبيرة جدًّا . والثراء يتحقق هناك بسرعة . وكاد يقيم في الأرچنتين لولا أنه لم يرغب في ترك خاله يعود وحده ؛ لذلك سيقضي بينهم بعض الأيام إلى أن يعثر على سفينة متجهة إلى الأرچنتين، وسيحاول أن يعمل بها كضابط ثان ، ثم يلتحق بالعمل في تجارة القمح في بوينس أيرس . يسأله

روبرت : إذًا لن تبقى بيننا ؟! فيجيبه أندرو بأن هناك أعمالاً أهم من البقاء في هذه المزرعة. ويسخر قائلاً : كيف تسمي هذه مزرعة ؟! إنها مجرد فدان واحد .. إنك لم تر ولم تسمع بتلك المزارع هناك التي تبلغ عشرات الأميال المربعة .. ثم أضاف بعد ذلك : « لقد ذهبت صباحًا في جولة مع روث في المزرعة .. وحزنت كثيرًا لحالها . لكن لا تحمّل نفسك المسئولية ، فأنت جاهدت قدر طاقتك » .. لكن روبرت يشعر أنه المسئول ، ويعرض عليه أندرو مبلغ ألف دولار استطاع أن يقتصدها له، إلا أن روبرت يرفض تمامًا وبإصرار مدعيًا أن كل شيء سينصلح بعد الحصاد . يتطرق الحديث بينهما إلى الموضوع الرئيسي ، الذي هو عصب هذه المسرحية : « علاقته بروث » .. إن أندرو يعلن أنه حين حدث ما حدث ، ظن أنها مصيبة لا يمكن تداركها ، ولكن بعد مرور ستة أشهر فقط في البحر استطاع نسيان روث وكل ما حدث تمامًا . ويشكر روبرت لأنه أتاح له هذه الفرصة ليتحدث بصراحة حتى يخرج هذا العبء عن صدره ، ولكن روبرت يطلب منه ألا يخبر روث بهذا الأمر . هنا تحدث مسألة سوء فهم مزدوج .. لقد ظن أندرو أن روث لا تريد سماع هذا الأمر ؛ لأنها تريد أن تنسى حماقات أندرو وتصرفاته الغبية معها .

لكن كان روبرت يعني العكس تمامًا .. إنه كان يخاف على روث أن تصدمها مشاعر أندرو الآن تجاهها وهي التي تعلقت به ، وتظن أنه هو الخلاص الوحيد والأمل لها .. على أي حال كان روبرت يرجوه ألا يتكلم في هذا الموضوع مرة أخري .

تظهر روث قادمة وتصعد إلى أعلى التل وهي تلهث وتخبر روبرت أن جيك العامل في المزرعة يسأل عنه لأمر مهم ، وينتظره عند أول الطريق ..

يكاد روبرت يهرول إليه ، ولكن روث تطلب منه في تبجح أن يصحب ابنته معه !! تحاول روث التودد إلى آندي ، وتعلن احتقارها لأخيه روبرت ، ولكن آندي يدافع عنه بقوة ويرى أنه لا يتحمل المسئولية وحده ، وأنه لن يسافر حتى يعين له خبيرًا في العمل ليساعده ؛ ويخفف عنه العناء لأنه منزعج بشأن مظهر أخيه والحالة المزرية التي وصل إليها ، تسأله روث في ذهول : « تسافر » ، فيقول : « نعم ، سوف أسافر إلى الأرچنتين لأعمل في تجارة الحبوب وأعود ثريًّا » ، فتسأله : « وهل أخوك يعرف ؟ » يجيبها : «نعم، أخبرته» ، فتسأله ثانية : « ألم يحاول أن يمنعك ؟ » فيتعجب أندرو ويقول : « لا ، طبعًا لم يحاول ، لكن لماذا ؟ » . تحاول روث أن تمنع أندرو من السفر بأي وسيلة ، وتبشره أنه سيجد فرصة للثراء حين تعود المزرعة لحالتها القديمة ، وأنه يمكن أن يصلح ما فعله أخوه ببساطة .

لكن أندرو يرفض كل ما تقوله ، ويعلن أنه سيبقى حتى يعثر على سفينة متجهة إلى الأرچنتين يسافر بها .. فجأة تسأله : « ماذا قال لك روب عني؟» فيقسم لها أنه لم يذكر عنها أي شيء . فتندهش! وتسأله : « هل سبب سفرك أول مرة هو نفسه سبب رغبتك في السفر ثاني مرة ؟ .. إن كان هذا هو السبب فإني أقول لك لا تذهب» ، ويرتجف صوتها فيعتقد أندرو أنها لازالت تشعر بالضيق منه؛ لأنه حاول أن يرتبط بها منذ ثلاثة أعوام ، فيقول لها بهدف التخفيف عنها : « تأكدي يا روث أن الأحمق لا يبقى أحمق إلى الأبد ، فلا تعيشين طوال الوقت وأنت في ضيق مني ومن حماقتي القديمة .. لقد طرحت هذا الهراء وراء ظهري منذ صعدت على السفينة ، والآن أنتِ أخت لي لا أكثر ولا أقل » .. تشعر روث بصدمة عنيفة مزلزلة لسببين: الأول : أنه يسافر مرة أخرى ويتركها وهي في حاجة إليه . والثاني :

لأنه يعتذر عما بدر منه من حماقات وتفاهات في الوقت ، الذي كانت هي في حاجة لأن يعترف لها أنه يهيم بها حبّا !

وحين يتحدث أندرو عن ابنتها ومدى ارتباطها بأبيها والشبه بينهما ، تتوسل إليه روث أن يكف عن الحديث ؛ لأنها تعاني من الصداع، وترجوه أن يتركها لشأنها .. يعود روبرت ومعه الخال سكوت الذي كان يبحث في عجلة عن أندرو ، ويخبره بأمر ينزل مثل الصاعقة على نفس روث . لقد كان الخال ديك سكوت في الميناء للإشراف على بعض الأعمال الخاصة بسفينته « سندرا » ، عندما علم بوجود سفينة ستبحر إلى الأرچنتين وتحتاج إلى ضابط ثان .. واسم هذه السفينة « الباسو » ووجهتها «بوينس أيرس» مباشرة .. يفرح أندرو جدًّا ويكاد يطير من الفرحة ، ويسأل الخال عن موعد سفرها فيعلن أنه صباح اليوم التالي!! .. صدمة مروعة لروث ؛ خاصة أن آندي لم يتردد لحظة في القبول، ومع ذلك عاد يسأل أقاربه فيوافق روبرت على هذه الفرصة لأخيه ، وحين يسأل روث ترد عليه بحنق وغضب ومرارة : « اذهب ياآندي » ، ثم تعود لشرودها مرة أخرى .

في فرحة ونشاط ، يتجه آندي إلى الخال سكوت ويبلغه بموافقته على السفر معهم .. فيسرع سكوت لإعلان الخبر لأصحاب السفينة وقبطانها . بينما يذهب آندي لتجهيز حقيبته والغذاء مع أمه ، وهو يؤكد أنه سيعود ثريّا خلال عامين فقط .. في يأس تصحب روث ابنتها ماري لتعد لها الطعام ، ويتبعها روبرت في إعياء وتهالك . ويتجهون إلى بيت الأسرة بخطوات ثقيلة يائسة .. لقد فقدت روث آخر أمل يربطها بهذه الحياة !



الفصل الثالث

يرتفع ستار المنظر الأول من الفصل الثالث ، في غرفة الجلوس نفسها في البيت الكبير ، بيت آل مايو ، ولكن بعد خمس سنوات ، وقعت فيها أحداث قاسية جدًّا على روث وروبرت .. فقد ماتت الأم السيدة مايو ، ثم ماتت – للأسف – الطفلة ماري منذ ثمـانية أشهر فقط .. وتحولت مسز أتكنز إلى هيكل عظمي مصاب بالشلل وضاعت المزرعتان .. ثم استبد المرض بالمسكين روب الذي تحمل عذابًا لا طاقة له به بعد وفاة حبيبته الصغيرة ماري . تخرج روث من غرفة نومه ، وتحاول روث العجوز أن تعيده إلى فراشه لأن حالته جد خطيرة ، ولكنه سعيد لأنه تلقى برقية من أخيه أندرو تفيد أنه سيحضر اليوم ومعه طبيب مشهور لعلاج روب وتحقيق الشفاء العاجل له . إن روب سعيد جدًّا .. سعيد لعودة آندي ولحضور الطبيب معه ، ولأنه أصبح ثريًا ويمكن أن يعطيه مالاً ليسافر هو وروث إلى بلاد جديدة ، يعوضان فيها كل العذاب الذي قابلهما في حياتهما ، ولكن روث تخبره أنها لا تستطيع السفر وتترك أمها المريضة .

يثور روبرت ويسعل بشدة ، ويعلن لروث أنها تبحث عن أعذار لتبقي مع آندي ؛ لأنها تحبه ويسعل بشدة .. فتريحه وتوافقه على السفر معه بشرط أن يعود إلى فراشه ، فإن جاء الطبيب ووجده في الفراش وفي حالة جيدة ، سمح له بالسفر . يطيعها روبرت ويهم بدخول غرفته كطفل صغير أبله ، ولكنه يقول لها تحت وطأة المرض اللعين : «ليتك تدركين يا روث روعة الإحساس بوجود هدف، يأمل المرء أن ينشده»، ويدخل غرفته، لقد أصبح

كلاهما في حالة من اليأس الشديد .. فما عاد غاضبًا من حبها لآندي ، وما عادت هي تحب أي شيء !!

الجو بارد ، فما عاد هناك خشب في المدفأة .. فمن يقطع لهم خشب المدفأة بعد رحيل جيك!! يصل آندي إلى البيت ومعه الطبيب كما وعد . الوحيد الذي تغير إلى الأفضل هو أندرو .. لقد أصبح رجل أعمال ذكيًا ، ويدخل مع الطبيب إلى غرفة روبرت ، ثم يعود وهو في ذهول للحالة التي وجد عليها شقيقه وحبيبه . ويلوم روث بشدة لعدم إبلاغه بمرض أخيه ، ويحزن أكثر حين تقسم روث أنها ما عادت تملك ثمن البرقية ! تحكي له روث مشوار حياتها حتى وفاة ماري ، وتقول : «لعل موت ماري قد هدّ كيانه .. لكن يبدو أنه اعتاد فراقها»، يثور أندرو ثانية : «هل استطعتِ الاعتراف بأنكِ اعتدتِ موت ابنتكِ ؟» ، فتقسم له بأنه يأتي على المرء وقت يفقد فيه الاهتمام بأي شيء ! يشفق أندرو كثيرًا على روث ويعتذر لها ، ويخبرها بأنه سيعود مرة أخرى إلى الأرجنتين ؛ لأنه لم يستطع تحقيق ذلك الثراء الذي كان يتوقعه ، ولكنه يقسم أنه لن يسافر إلا بعد أن يعود العمل في المزرعة كما كان من قبل ويحقق لهم كل ما كانوا يحلمون به ، يعود الطبيب من غرفة روب حزينًا مهمومًا. ويعلن أن داء الصدر قد تمكن من روبرت، ولم يعد هناك أي أمل في شفائه . ربما كان هناك أمل لو تم علاجه منذ ستة أشهر مضت .. أما الآن ، فمستحيل ! سيموت روبرت خلال أيام . يخرج الطبيب ، ولا زال أندرو حزينًا .. يلوم روث لأنها لم تفعل أي شيء لإنقاذه. يخرج روبرت من غرفته وهو يتألم من وطأة المرض اللعين ، لقد سمع كل ما قاله الطبيب وعرف بأمر موته المحتم ، ويطلب روبرت من آندي أن يهتم بالمزرعة ، وأن يتزوج روث ، لأن روث فعلاً تعبت وتعذبت .. يجاهد أندرو لإدخال أخيه إلى غرفته ليستريح ؛ فيمتثل للأمر . ويعود أندرو

ليحاول أن يعرف حقيقة ما جري. فتحكي له عن تطور علاقتها بروب بعد سفره . ويسألها عن سبب طلبه أن يتزوج روث ، فتقول إنه أمر طبيعي أن يتأكد أنني سأكون في حياة رغدة خاصة بعد موته ، ولكن آندي يجيبها بحدة ، بأن هذا أمر طبيعي أن يتكفل بها بعد موته .. لابد أن هناك مسألة أخرى . ماذا حدث ؟! تقول له : « لقد تشاجرنا بعد رحلتك الأولي » فيسألها بدهشة : «تشاجرتما ؟! وما علاقتي أنا بهذا الأمر ؟ » تجيبه روث : « اكتشفت أنني أخطأت بزواجي من روب » ، فيبادرها : « اكتشفتِ إذًا أنكِ لا تحبينه » ! ، فتهز رأسها بالإيجاب ، وتواصل حديثها : « ظننت أنه بعد إنجاب ماري سيتغير الأمر وأحبه فاكتشفت أنني أكرهه ! واكتشفت أيضًا أنك الشخص الوحيد الذي أحببته» . يسألها أندرو في دهشة : «هل تدركين ما تقولين ؟! » تجيب: « نعم لقد تشاجرنا قبل مجيئك مباشرة ، وفي لهيب المشاجرة اعترفت له بما قلته لك الآن » ! يصيح آندي : « هل أخبرتِ أخي أنكِ تحبينني أنا ؟! » فتهز رأسها بالإيجاب ، وهنا تثور ثائرة أندرو ويسبها ، ويقول لها : « كيف تجرؤين على فعل هذا أيتها الحمقاء المجنونة .. ما أشد الألم الذي تعرض أخي له وأنتِ آخر من يدرك مدي حبه لكِ .. لا عجب الآن أن يكون في طريقه إلى القبر أيتها الحمقاء . إن كنتِ أنتِ تحبينني ، فإنني أعلن أنني أكرهك ولا أحبك .. إني أحب أخي روب أكثر من أي شيء في هذا العالم » . وفي قسوة يأمرها بأن تدخل على أخيه لتخبره أنها خدعته ، وأنها ما أحبت أندرو قط ، وأنها لم تحب إلا روبرت . «اكذبي عليه فلعل في هذا راحة له وهو في رحلته الأخيرة» . تدخل روث عليه تحت تأثير خوفها من أندرو ، ولكن سرعان ما تعود صارخة بأنها لم تجد روبرت في فراشه وأن زجاج نافذته مفتوح . ويهرولان بحثًا عنه .

في المنظر الثاني في الحقول خارج البيت يعثران على روب وقد سقط في حفرة بجوار السور انتظارًا للفجر الذي ظل يحلم به .. تضع روث رأسه في حجرها ، وهي تبكي بشدة ، فيقول لهما : « لا تحزنا على بل افرحا لأنني تحررت أخيرًا من المزرعة وهموم المزرعة .. أنا الآن حر .. » ثم في آخر كلمة له أخذ يوصيه بالعناية بروث لأنها تعذبت كثيرًا ، ثم يموت روبرت ؛ فيبكي أندرو ويقول لها : « لعنة الله عليك ، لمْ تخبريه بما أمرتك به » . فترد في حزن : « كان سعيدًا جدًّا دون حاجة لأن أكذب عليه » ، فيشير إلى الجثة ويصرخ فيها : « هذه هي فعلتك الدنيئة .. أنتِ جبانة وقاتلة » . بعد لحظات يتلاشى غضب أندرو ويعتذر لها ، ويحاول أن يبرر لها ما قاله ، وما معناه ، وما سببه، ثم قال لها : « يجب أن يساعد كلٌّ منا الآخر للخروج من هذه الورطة » لم تعِ روث ما يقوله ولم يظهر عليها أي أثر لكلامه .. وتبقى في مكانها بجوار روبرت ، تنظر إلى وجه أندرو دون أدنى انفعال وقد نزلت على روث التعيسة .. سكينة وهدوء نفسي بالغين .. يحار على أي إنسان تفسيرهما !

وهكذا ، أطاح قرار الحب المتعجل والزواج غير المدروس بحياة أسرة كاملة ، مع أن الحب الحقيقي هو أنبل مشاعر البشر !

* * *

توماس هاردي

Thomas Hardy

بعيدًا عن الحشد المجنون

Far From the madding Crowd

تل نور كومب القريب من الطريق الرئيسي المؤدي إلى كاستر بريدج وسط مزارع الريف الإنجليزي ، في القرن التاسع عشر .. هناك توجد مزرعة الشاب جبرييل أوك الذي اعتاد المزارعون أن ينادونه فارمر أوك .. شاب في الثامنة والعشرين من عمره ، تلك الفترة المشرقة من حياة الإنسان، لم يتزوج وكان دمث الخلق ومهذبًا جدًا ، لا يتجاوز حدوده أبدًا مع الناس، وكان عمله يتميز بالجدية والإخلاص ويتصف بالحكمة والرأي الصائب والشخصية الممتازة . واستطاع جبرييل أو فارمر أوك أن يقتصد مبلغًا جيدًا من المال ، فتمكن من استئجار مزرعةٍ صغيرة للأغنام في منطقة تل نور كومب ، وسرعان ما اقتصد مبلغًا آخر من المال تمكن به من دفع القسط الأول من قيمة شراء مائتي وخمسين رأسًا من الغنم . لقد أصبح صاحب مزرعة ، بعد أن كان مجرد راعٍ للأغنام ومساعدًا لأبيه في تربية أغنام أصحاب المزارع الأثرياء .. ثم مات أبوه ، فبذل الجهد المضاعف حتى يتمكن من سداد بعضٍ من أقساط أغنامه ومزرعته .

صباح أحد أيام شهر ديسمبر القارص البرودة ، حيث الضباب لا يزال يُغلف ذلك المشهد البديع للمزارع وغابات الأشجار الكثيفة والطبيعة في أحلى صورها .. وبينما يتجول «جبرييل» في مزرعته يتفحص ذلك السياج المكون من الأشجار ، شاهد عربة يجرها حصان تصل إلى الممر الضيق

خارج سياج مزرعته .. كانت العربة مزدانة بألوان زاهية تجلس فيها امرأة شابه جذابة ترتدي چاكت أحمر ، تنسدل عليه خصلات شعرها الأسود الناعم . ومع ابتسامتها الرقيقة تحولت البرودة إلى دفء لذيذ في أعماق « جبرييل » الذي خرج إلى الممر، وسار بعض الخطوات خلف العربة، التي أوقفها حارس البوابة ، الذي طلب منها دفع بنسين ، ليسمح لها أن تمر من البوابة ، فرفضت لأنها قدمت له من قبل الكثير ، فازداد عناد الحارس ورفض السماح لها بالمرور ، فما كان من جبرييل إلا أن دفع هو البنسين .

والعجيب أن المرأة الشابة لم تلتفت إلى جبرييل ولم تشكره ، بل مضت في طريقها غير مبالية ، فربما زادها جمالها غرورًا !

قال الحارس لفارمر أوك : «إنها فتاة جميلة ! » فأضاف فارمر أوك: « لكنها مغرورة » ، ومضى بهدوء إلى مزرعته .

كان جبرييل أوك يعمل بجد وإخلاص حتى يتمكن من سداد أقساط أغنامه ، وفي تلك الليلة شديدة البرودة خرج للمرور على أغنامه وتفقد الحظائر المسقوفة بإتقان لتدفئة تلك الحيوانات الهادئة، ولكنه لاحظ أنه ما أن وصل إلى الحظيرة حتى علا رنين أجراس هذه الأغنام ولما دخل بسرعة اكتشف أن إحداها قد ولدت في التو حملاً صغيرًا ، فحمله بين يديه في سعادة غامرة ، واقترب به من الموقد ليُشعِرهُ بالدفء ثم أعاده ملاصقًا لأمه، وخرج في هدوء وقد تحولت رغبته في النوم إلى يقظة تامة ونشاط .. ونظر إلى السماء وإلى مواقع النجوم ، فتأكد أن الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .. أحس بالامتنان الشديد إلى اللّـهِ ، وشعر أن حياته بها بعض الجوانب الجميلة الساحرة .. كانت لحظة سلام كوني لم يشعر بها من قبل !



لاحظ جبرييل انبثاق نور مصباح من موقع حظيرة تابعة لجارة له، فاتجه نحوها ونظر من ثقبٍ في السياج ليتأكد من عدم وقوع مكروه لجارته . فاكتشف أن جارته الكبيرة في السن تتحدث إلى فتاة شابة ، وتقول لها : «إننا يجب أن نعتمد على أنفسنا في أعمالنا ؛ لأننا لسنا أثرياء لنستأجر أحدًا ليقوم بالعمل نيابة عنا» ، فأجابتها الفتاة في دلال: « نعم يا عمتي سأذهب في الصباح الباكر إلى الطاحونة لإحضار بعض العلف ، وسأقوم بالبحث عن قبعتي التي فقدتها في الطريق » . هنا وبعد أن سمع حديثها ازداد جبرييل شوقًا لرؤية وجه هذه الفتاة ، وما أن استدارت حتى عرف أنها هي تلك الجميلة المدينة له ببنسين .. يبدو أن قلبه قد تعلق بها !!

ازدادت برودة الجو ذات مساء وبدأ الثلج يتساقط ، فأسرع إلى حظيرة الأغنام ليكوِّم لها القش لتشعر بمزيدٍ من الدفء .. عاد جبرييل إلى كوخه وهو متعب ، فوضع مزيدًا من الوقود في موقده ، ولكن الرياح تسربت من تحت الباب . فسد المكان ببعض القش ، ولكن الهواء البارد تسرب من ثقبي التهوية فأغلق أحدهما واستدار ليفتح الثقب الآخر ، فمن المعروف أنه عندما تشتد الرياح ، ويتم إشعال الموقد للتدفئة، يجب فتح أحد الثقبين وإغلاق الآخر . كان جبرييل يعرف ذلك جيدًا ، ولكنه كان متعبًا فجلس للراحة فوق المقعد على أن يفتح الثقب الآخر بعد لحظات ، ولكنه سرعان ما راح في سباتٍ عميق!!

أفاق جبرييل على ماءٍ بارد يتساقط من رأسه المبللة ، واكتشف أن رأسه هذه موضوعة وساكنة فوق ركبتي الفتاة الجميلة « باتشيبا » ، وكان هذا اسمها ، أصابته الدهشة بل الذهول ، حاول النهوض فلم يقدر .. حاول أن يفهم ما يدور حوله ، فأجابته وعرف منها أنه فقد وعيه ، وهذا ما أخاف

كلبه العزيز جورج فأسرع إليها وهو ينبح ، وأخذ يجذبها من ثيابها فأدركت أن هناك أمرًا جللاً يحاول الكلب الذكي إبلاغها به . فأسرعت معه إلى الكوخ لتجد الدخان يملأ المكان وجبرييل ممددًا فاقدَ الوعي تمامًا ، فأسرعت إلى وعاءٍ به ماء بارد ونظيف ، وألقت به فوق رأسه ، حتى أفاق !! وأضافت بأن هذا الكلب شديد التعلق به !

شعر جبرييل أنه هو الذي أصبح شديدَ التعلق بها .. ولِمَ لا ، وقد أنقذت حياته من موت محقق . ما أن أفاق جبرييل وشكرها على حسن صنيعها حتى انصرفت بهدوء وربما بلا مبالاة . كان جبرييل قد عرف من ثرثرة الناس أن الفتاة رائعة الجمال اسمها باتشيبا إفردين ، وأنها ابنة شقيق جارته المتوفي حديثًا !!

قضى جبرييل زمنًا يُفكر في باتشيبا .. لقد أحبها بالفعل وملَكَت عليه تفكيره وظلت تلازمه في خياله لا تبرحه قط ، فقرر أن يذهب إليها . ذات صباح حمل جبرييل بين يديه باقة ورد وذلك الحَمل الصغير المولود حديثًا ، واتجه إلى بيت عمة باتشيبا لإهدائها له .

اتجه جبرييل إلى بيت العمة وسأل عن باتشيبا فأخبرته أنها في الجوار .. ولما سألها : «هل باتشيبا مرتبطة بأحد خاصة في مسألة الزواج ؟» أفادته العمة أن هناك كثيرين يتقدمون لخطبتها . شعر جبرييل بالحزن وانصرف عائدًا إلى مزرعته ، ولكن لدهشته وفرحته في الوقت نفسه سمع صوت باتشيبا تنادي عليه لاهثة وهي تجري خلفه لتلحق به ، فشعر بسعادة غامرة . أخبرته أنها غضبت من عمتها لأنها قالت له عن كثرة الخطاب الذين يلاحقونها ، وأقسمت له أن أحدًا لم يتقدم إليها ، وأنها تكره أن يظن الناس عنها غير الحقيقة .. إذًا هي غير مرتبطة بأحد .

لم يشعر جبرييل بسعادة في حياته الخشنة مثلما شعر بها الآن ، واعتبر أن سعي باتشيبا هذا بمثابة قبول لخطبته لها ، فسألها بثقة وبهجة: « إذًا تقبلين الزواج بي ؟ » فردت بسرعة : « لا ! » ولم يشعر جبرييل بصدمة في حياته الخشنة مثلما شعر بها الآن !! وكان عليه أن يسأل عن السبب ، فأجابته ببساطة لأنها لا تحبه ولا تشعر نحوه بأي مشاعر خاصة .. وحفاظًا على كرامته أجابها بأنها معها حق لأنه هو أيضًا لا يشعر نحوها بأي مشاعر ومضى في طريقه حزينًا مهمومًا ، وهو يعلم أنه قد كذب عليها لأنه يحبها كما لم يحب أحدًا من قبل . ولأن جبرييل كان قــويّا وعزيز النفس فقد نسي الأمر تمامًا ، وعاد إلى عمله الذي لم يكن يملك غيره.

بعد أيامٍ علم جبرييل من كلام الناس أن باتشيبا قد غادرت مزرعة عمتها ، وعادت إلى مزرعتها في قرية أخرى قريبة اسمها وذربري .

عاد جبرييل إلى عمله يبثه همه ويدفن فيه أحزانه ؛ فالرجل القوي يعرف أن الحياة لا تتوقف على شخص واحد ، وإن كان لم يستطع نسيان غرور تلك الفتاة .

ذات ليلة اكتشف جبرييل أن الأغنام خرجت للرعي بحراسة كلبه العجوز وصغيره ، ولكنها لم تعد كما اعتادت .. فنادي عليهما ، فاستجاب الكلب العجوز لندائه ، ولم يستجب الصغير المتهور لذلك النداء . شعر جبرييل بغُصةٍ في حلقه وانطلق يبحث عنه في الظلام .. قبل الفجر بقليل ، سمع جبرييل صوت أجراس الأغنام تدق بعنف وبصورة غير طبيعية ، وتأكد أن الخمسين نعجة فقط مع حملانها الصغيرة هي التي عادت . أما المائتا نعجة الأخري والتي لم تلد بعد ، فلم تعد إلى المزرعة. انطلق ينادي

على أغنامه في أنحاء المكان ، ولكن دون جدوى . توغل بين الأشجار وصعد إلى التل فشاهد عند حافة التل كلبه الصغير جالسًا كأنه ينظر إلى السماء عند حافة صخرة منحدرة ، أدرك جبرييل حجم المأساة الـمُقبل عليها فسَرت قشعريرة الخوف في بدنه ، وتقدم إليه كلبه يتمسح في ثيابه كأنه ينتظر المكافأة.

نظر جبرييل عبر المنحدر أسفل الصخرة فهاله منظر ما رأي . أكوام من جثث النعاج الميتة .. مائتا جثة نعجة تحمل في أحشائها مائتي حمل تقريبًا لم يتم ولادتها بعد .. أدرك حجم المأساة المقبل عليها من ديون وأقساط ومسئوليات . وكان ممتنًا للغاية على أنه غير متزوج ، وإلا كيف كانت ستعيش زوجته وهو مقبل على مرحلةٍ من الفقر والشقاء . تقدم إليه الكلب كأنه يطلب المكافأة لأنه أجاد عمله على أكمل وجه؛ فقد ظل يدفع الأغنام دفعًا لترعى الكلأ حتى سقطت إلى هذه الهوة السحيقة . كان قلب جبرييل رحيمًا فماذا يفعل لمثل هذا الكلب ؟ عاد الرجل إلى مزرعته حزينًا وهو يفكر ويحسب ما تبقى من ديونه وما بقي لديه من أموال ، فاكتشف أنه إذا باع كل ما لديه من ممتلكات فإنه سيتمكن بالكاد من سداد ديونه ، وهذا ما فعله .. باع كل شيء، وسدد كل شيء ، وما عاد يمتلك أي شيء ، إلا ثيابه التي يرتديها فقط . وهكذا أصبح حرّا وأصبح لزامًا عليه أن يبدأ من جديد ومن الصفر ! لكن دون ندم على ما أصابه !!

كان الشهر هو فبراير حين غادر جبرييل إلى قرية شوتسفورد ليعرض نفسه في سوق العمل .. في البداية تقدم إلى وظيفة مدير مزرعة ، لكن كان أصحاب العمل يُحجمون عنه حين يعلمون أنه كان صاحبُ مزرعة ؛

فنصحه بعض المزارعين بعرض نفسه للعمل كراعٍ للغنم ؛ حيث إنها المهنة الوحيدة المطلوبة خاصة في وذربرى .. دق قلبه لسماع هذا الاسم ، أليست هذه بلدة محبوبته باتشيبا ؟!

أثناء سيره في الطريق المؤدي إلى وذربري ، لاحظ جبرييل اشتعال حريق هائل في إحدى المزارع فاندفع نحوها . وأخذ يساعد الناس . وساهَمَ بشكلٍ فعال في إنقاذ محصول القمح كله ، ثم في إطفاء النيران .. فرحت صاحبة المزرعة لإنقاذ محصول القمح وحكي لها المزارعون أن الفضل في ذلك يعود إلى ذلك الشاب الغريب ، نظرت إليه باتشيبا فعرفها وعرفته ، ولكنها لم تبال به . وقال أحدهم لها إن الرجل يبحث عن عمل كراعي غنم، وأن المزرعة في حاجة إليه وإلى خبرته وقوته . فردت بكبرياء وغرور : « دعوه يتفق مع مدير المزرعة »! لم يحزن جبرييل ولم يضطرب ، لأنه قرر ألا يسمح لأي شيء أن يأخذه بعيدًا عن العمل !

لم يستغرق الاتفاق مع مدير المزرعة وقتًا طويلاً ، فقد كان في حاجةٍ إلى رجلٍ بمواصفات « جبرييل » .. سأله جبرييل عن مكان يبيت فيه ، فأجابه مدير المزرعة بأنه لا مكان يبيت فيه في المزرعة ، وأن عليه أن يبحث عن مكان .

أثناء البحث التقى جبرييل بفتاةٍ صغيرة جميلة ذات صوت عذب .. يبدو عليها التعب والإرهاق ، فسألها عن مكان يبيت فيه ، فنصحته أن يذهب حيث يتجمع المزارعون في حانة قريبة لعلهم يقدمون له العون، وطلبت منه في رجاء ، ألاَّ يُخبر أحدًا أنه التقى بها .. أشفق جبرييل عليها فأعطاها « شلنًا » لا يملك غيره !

استقر جبرييل في عمله ، واستطاع التعامل مع باتشيبا بكل هدوء وقوة . وحدث أن اكتشفت باتشيبا أخطاءً ماليةً فادحة ارتكبها مدير المزرعة عمدًا فقررت طرده ، والقيام بدور مدير المزرعة، وسرعان ما عرفت باتشيبا كل شيء في المزرعـة، بمساعدة حـبرييل .

بالقرب من مزرعة باتشيبا كانت توجد مزرعة كبيرة يمتلكها شاب وسيم اسمه بولدوود وكان يتميز بالخلق الرفيع والثراء .. والخبرة في عمله والابتعاد التام عن كل مغريات الحياة ، بما فيها العلاقات النسائية !! وحين التقت به باتشيبا مصادفةً ، أثار كبرياءها وغرورها أنه لم يلتفت إليها قط ، فقررت أن تكيد له وتجعله يلهث وراءها . وفي إحدى مناسبات عيد القديس فالنتين ، أرسلت له بطاقة تهنئة كتبت عليها عبارة واحدة : « تزوجني » !! لم تكن باتشيبا تسعى إلا للعبث!!

ارتبط بولدوود بصداقة عمل مع جبرييل ووثق فيه تمامًا ، وحين عرض عليه هذه البطاقة ، أجابه جبرييل أن صاحبة هذا الخط هي باتشيبا إفردين . وجد بولدوود نفسه مُنساقًا وراء باتشيبا الجميلة الفاتنة التي نجحت في السيطرة على بولدوود وعلى مشاعره . وحين تقدم إليها لخطبتها رفضته بغرور أيضًا بزعم أنها لا تحبه ، ولكن حين ألح في طلبه وعدته بدلال وغرور أن تفكر في الأمر .

تناقلت ألسنة الناس في القرية قصة الفتاة التي التقى جبرييل بها دون أن يعرفوا حقيقتها.. كانت الفتاة تعمل لدى باتشيبا واسمها فاني روبينز ، وقد هربت منها في تلك الليلة لتتزوج من حبيبها الفارس الوسيم الذي حملت منه !! وكان يحبها فعلاً ، إلا أن القدر تدخل في تلك الجريمة وحال دون زواجها من ذاك الفارس !

التقت باتشيبا مصادفة بالفارس الوسيم سيرجنت تروي ولم تكن تعرف عنه الكثير ، ولكن تعددت لقاءاتهما فوقع الفارس في حبها، ولعل هذا ما أرضى غرور باتشيبا . ولأن سيرجنت تروي من أصول فرنسية فكان يجيد فن الكلام ولباقته، وبدأت تسمع منه أجمل العبارات التي لم تسمعها من أحدٍ من قبل فتعلق قلبها أيضًا به وسرعان ما أحبته . وحين يتزايد كلام الناس يصل الأمر إلى الشاب بولدوود فيغضب ويقسم بالانتقام من هذا الإنسان .. تسرع باتشيبا إلى مدينة «باث» لتُحذر تروي من غضب بولدوود ، وهنا يطلب منها سيرجنت تروي الزواج فتوافق على الفور !

ظل جبرييل وفيًا لصداقته لباتشيبا ومخلصًا لعمله في الوقت ذاته ، ولم يؤثر فيه أمرُ هذا الزواج ، وإن كان قد صارحها بعدم موافقته على هذه الزيجة .

تم الزواج ، ولم يمضِ وقت طويل حتى أظهر تروي الجانب الحقيقي من شخصيته ، ذلك الجانب السيئ ! فقد تحولت عباراته المعسولة إلى عبارات خشنة وجافة وفظة ، وبدأ يتعامل مع باتشيبا بقوة وجفاء ثم بإهمال ، وبدأ يتدخل في أمور المزرعة التي لا يعرف عنها أي شيء . وأعلن للناس أنه هو المسئول عن المزرعة وليست باتشيبا . وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء القاسية ، أقام حفلاً حضره كل العاملين بالمزرعة وسمح لهم بالشراب حتى الثمالة وفقدوا جميعًا وعيهم ، عدا جبرييل الذي كان يعرف طريقه جيدًا ، وقد أنذر تروي بأن الليلة قاسية وتنذر بأمطار غزيرة ويجب أن يعمل الجميع على إنقاذ المحصول ونقله إلى مكانٍ آمن ، ولكن تروي استهان بما قاله جبرييل واستخف به ووصفه بالجهل والسطحية . وما إن بدأ الرجال

يفقدون الوعي ويتساقطون حتى بدأت السيول تغمر المكان . كان على جبرييل أن يعمل وحده في نقل مخزون القمح إلى أماكن آمنة تحميه من البلل والتسوس .. وعرفت باتشيبا بما حدث فشعرت بالامتنان الشديد لجبرييل ، الذي لولاه لفقدت كل شيء !!

اهتزت علاقة باتشيبا وتروي ، بينما توطدت علاقة جبرييل وبولدوود الذي أدماه الألم والعذاب ، وكان جبرييل يواسيه دائمًا ويؤكد له أن باتشيبا غيرَ سعيدةٍ بزواجها من تروي .

ذات يوم خرجت باتشيبا مع تروي لقضاءِ أمرٍ ما .. وفي الطريق تشاجرت معه لأنه بدأ يبدد أموالها في الخمور والمراهنات وسباق الخيل .. فجأة لمح تروي فتاةً صغيرة شاحبة وواهنة ، ويبدو عليها المرض وتمشي بصعوبة بالغة كما بدت عليها علامات الحمل .. عرف تروي أن هذه الفتاة هي محبوبته فاني فأوقف العربة على الفور وقفز منها ، واتجه إليها وساعدها على السير ، ولكنه همس لها وهمست له. وعرف منها أنها في طريقها إلى دار الإصلاحية لطلب المساعدة، فطلب منها الذهاب إلى هناك على أن يلحق بها بعد يومين فقط لإعلان زواجه منها ، مهما كلفه الأمر !!

عاد تروي إلى العربة حزينًا ومهمومًا .. فسألته باتشيبا إن كان يعرف هذه الفتاة الضالة ؟ فأجاب : « بعض الشيء » . دب الخلاف مرة أخرى بينهما رغم أنها لم تعرف أن هذه الفتاة هي فاني ، التي هربت من خدمتها لتتزوج ذلك الفارس !!

شقت فاني المسكينة طريقها بصعوبة بالغة إلى دار الإصلاحية ولشدة الإعياء الذي عانت منه ، ساعدها كلب ضال على الوصول إلى باب

دار الإصلاحية ، ثم سقطت أمام الباب غائبة عن الوعي . خرج إليها بعض العاملين بسرعة لمساعدتها على الدخول ، ومحاولة إنقاذها والطفل البريء الذي تحمله في أحشائها .

صباح اليوم التالي .. دب شجارٌ حاد بين باتشيبا وزوجها تروي فقد اكتشفت أن تروي يحتفظ بخصلة من شعر امرأة في علبة الساعة التي أهدتها إليه باتشيبا من قبل .. ثار تروي ثورة عارمة وأعلن استياءه من باتشيبا لغرورها وتدخلها المستمر في حياته الخاصة ، وحين كاشفته بشكوكها عن علاقته بامرأة أخرى ، أكد لها أنه يحب فعلاً فتاة فقيرة ومسكينة ، وأنه يحبها أكثر منها ألف مرة ، وسيلتقي بها اليوم التالي ليعد العدة للزواج منها مهما كلفه الأمر . وغادر البيت غاضبًا .

أحست باتشيبا بمرارة شديدة ، وأنها خسرت كل شيء لأنها تسرعت في كل ما فعلته في حياتها ، ولم تتصرف بالحكمة المطلوبة منذ رفضها جبرييل وهجرها وإهمالها بولدوود ثم زواجها المتسرع غير المدروس من تروي . عندئذٍ دخل عليها جوزيف برجراس أحد العاملين بالمزرعة ؛ ليعلن لها أن المسكينة فاني التي كانت تعمل في خدمتها وهربت ، ماتت في الأبرشية وأن جارها بولدوود أعلن أنه سيتكفل بكل نفقات الجنازة . لكن باتشيبا رفضت أن يتدخل أحد ويمنعها من القيام بواجبها ؛ خاصة وأن المسكينة كانت تعمل في خدمتها ، وطلبت من جوزيف برجراس أن يذهب إلى الأبرشية لاستلام جثمان المسكينة فاني لدفنها بمعرفتها. وأعربت له عن ندمها ؛ لأن فاني دخلت الأبرشية منذ هروبها من خدمتها ، ولم يخبرها أحد. لكن جوزيف برجراس أجاب في تحرج أنها دخلت الأبرشية بالأمس فقط ، كما أنها هربت لأنها وقعت في حب فارس في الجيش ، كان قد وعدها

بالزواج منها ، وألمح في ذكاء بأن الناس يقولون إن هذا الفارس أحبها فعلاً، وأنه يشبه إلى حدٍّ بعيد السيرجنت تروي !! كان الكلامُ مثيرًا للسيدة باتشيبا !!

بدأ الناس يلوكون الكلام المباح عن علاقة تروي زوج باتشيبا بالمسكينة فاني، ووصَلَها ما يتناقلونه من كلام ، فتألمت كثيرًا !

ذهب المزارع جوزيف برجراس إلى الأبرشية واستلم جثمان فاني، وكان مكتوبًا على النعش عبارة : فاني والطفل . وضع برجراس النعش في العربة وذهب إلى الحانة ليتناول كأسًا ويتبادل نقل الكلام مع هذا الحشد المجنون ، وعندما شعر جبرييل أن الرجل قد تأخر ، ذهب إلى الحانة بسرعة وأخذ منه الجثمان ، ولما وجد ما هو مكتوب على النعش مسح بيده عبارة : فاني والطفل إشفاقًا على مشاعر باتشيبا ! لكن حين عاد بالصندوق إلى بيت باتشيبا .. نزعت هي الغطاء وشاهدت بنفسها جثمان فاني وإلى جوارها جثمان طفلها، الذي لم يشهد هذه الحياة !

ذهب تروي إلى الأبرشية حسب موعده مع فاني ، ولكن أصابته صدمةٌ قوية حين عرف ما حدث . وعاد مسرعًا إلى بيته وهو في شدة الحزن والألم، ولما واجهته باتشيبا بكلام الناس اعترف لها أنه يحب فاني فعلاً ، وأن الطفل هو ابنه ، وسوف يُعلن على الملأ أنه زوج فاني المسكينة لأنها أفضل منها في كل شيء ، وغادر البيت حزينًا باكيًا ، وتماسكت باتشيبا ، وتم دفن فاني وطفلها .

هدأ الكلام الذي تناقله الحشد المجنون ، وذهب تروي إلى الغابة، ثم قرر أن يذهب إلى البحر ليستحم في الماء البارد لعله يُطفئ نيران المشاعر

المشتعلة داخله . وخلع ملابسه وتركها على الشاطئ وأخذ يسبح إلى أن سحبه التيار ، وأخذ يصارع الأمواج ، وأشرف على الغرق إلا أن سفينة متجهة إلى أمريكا أنقذته .. ولما عرفوا أنه فارس سمحوا له أن ينضم إلى طاقمها .

أما على الشاطئ ، فقد عثر أحد الشبان على ملابس تروي ، فشاع بين الناس فيما يتناقلونه من كلام أن تروي قد غرق ومات وصدّق الناس هذه المقولة . إلا باتشيبا التي كانت تعرفه جيدًا ، وتعرف أنه لا يُقبِل على مثل هذا الأمر ، وأنه حتمًا سيعود يومًا .

وبإعلان وفاة تروي ، تشجع بولدوود ليعاود طلب يد باتشيبا للزواج بها فلم تمانع، ولكنها رجته أن يؤجل المسألة بعض الوقت ، حتى تهدأ نفسها من هذه الأحداث العاصفة .

حدث أن عاد تروي من أمريكا ، والتحق بالعمل في إحدى الفرق التمثيلية بمدينة قريبة من وذر بري ، وتم دعوة باتشيبا لحضور هذا العرض التمثيلي مصادفةً ، وبتدبير من مدير مزرعتها المطرود .. يراها تروي وتعرف باتشيبا أنه لا يزال موجودًا ولكنها لم تلتق به !

اقتربت الاحتفالات بأعياد الكريسماس ، وأخذ المزارعون يستعدون لهذه المناسبة السعيدة . وانتهز بولدوود هذه المناسبة الطيبة وأقام حفلاً رائعًا وبهيجًا ، لا يقل بهجةً عن البهجة التي كان يشعر بها في تلك الأثناء تجاه محبوبته باتشيبا ، فكانت هي أول من دعاها لحضور الحفل كما دعا صديقه المخلص والوفي جبرييل وحشدًا كبيرًا من رجال ونساء القرية .

وخلال الحفل ، والسعادة تغمر الجميع ، لم يتردد بولدوود في إعادة طلب يد باتشيبا ، التي لم تمانع هذه المرة كما كانت تفعل من قبل ، فوعدته بتحقيق رغبته بالفعل وفي القريب العاجل ، ولم يكن هناك في العالم من هو أسعد من بولدوود في تلك الليلة !

فجأة ، وبترتيب خبيث وماكر من مدير المزرعة الفاسد والمطرود ، يصل تروي إلى الحفل .. ويصاب الجميع بالدهشة والصدمة ويشعر بولدوود بالمرارة والألم . طلب تروي من باتشيبا أن تعود إليه بأسلوب فظ وجارح ، ولكنها ترفض ذلك بقوة وكبرياء لأنه لم يكن أمينًا عليها في أي يوم وتسبب في إحراجها وجرح كرامتها أكثر من مرة ، وأنها ستنفصل عنه ؛ فيعنّفها فتصرخ وتبكي .. فما كان من بولدوود إلا أن يسرع إلى غرفة مكتبه ويعود ومعه بندقية ، ويتشاجر مع تروي في غضب جامح ، ثم يطلق عليه النار فيرديه قتيلاً !

وهنا بدأت المأساة .. بدأت في أول الأمر كأنها ملهاة ، ولكن سرعان ما تحولت إلى مأساة وأية مأساة ! يتم القبض على بولدوود ويُقدم للمحاكمة فيحكم عليه بالإعدام . ولكن في مرحلة أخرى يُخفف عليه الحكم إلى السجن مدى الحياة . وحين زار جبرييل هذا المسكين ، هاله ما وجده عليه فقد أصابه مس من الجنون . حزن الناس جميعًا على بولدوود وما أصابه ، ولكن كان حزن باتشيبا لا مثيل له لأنها أحست أنها وحدها المسئولة عن كل ما حدث من مصائب ! وأن ما حسبته في بادئ الأمر مغامرة عاطفية بريئة ولطيفة ، انقلب إلى مأساة مروعة وإلى قتل وإعدام وسجن وجنون .. عصف بها الحزن فانزوت بعيدًا وسلمت نفسها للعزلة والانطواء بعيدًا عن الناس وعن ذلك الحشد المجنون . ولم تخرج مما هي فيه إلا عندما فوجئت

بأن جبرييل يريد أن يترك العمل لديها ، بل ويرفض إدارة مزرعة بولدوود ووصايته عليها .. فتفيق باتشيبا على هذا الكابوس المزعج .. إنها على يقين أن جبرييل هو الوحيد الذي يحبها فعلاً وفي صمت ، وأنه الوحيد الذي كان يعرف ما يريد وما يفعل . فاستطاع أن يشق طريقه بجد وإصرار ومثابرة ، بعد أن ضمد جراحه القديمة ولم يستسلم ، حتى عاد قويًا وثريًا كما كان في بداية هذه الأحداث !

وبعد مرور عدة أشهر شُفيت فيها باتشيبا من أحزانها وجراحها وهدأ كلام الحشد المجنون ، استطاعت إقناع جبرييل بالبقاء ، فاستطاع هو إقناعها بالزواج منه ، فلا يوجد من يحبها مثله ! لم يكن أمام باتشيبا إلا القبول دون تردد .. لتبدأ حياة جديدة وسعيدة وهادئة، مستفيدة من تجربتها السابقة وبعيدًا عن الناس .. عن ذلك الحشد المجنون !!

* * *

مـارجـريـت مـيـشـيـل

Margaret Mitchell

ذهب مع الريح

Gone With The Wind

الجزء الأول

في أحد أيام ربيع عام 1861 وقفت سكارليت أوهارا ذات السادسة عشرة ربيعًا ، في شرفة بيتها المطلة على مزرعة تارا التي يمتلكها أبوها جيرالد وتقع في جنوب جورجيا . كانت سكارليت تمزح وتثرثر مع الأخوين التوأم البالغين التاسعة عشرة من العمر برنت وستيوارت ثارلتون وتطرق الحديث بينهم إلى تلك الشائعات التي يتناقلها الناس في الجنوب ، حول احتمال نشوب الحرب بين الشمال والجنوب . لكن سكارليت غيّرت هذا الحديث الجاف إلى موضوع حفل الشواء الذي سيقام في اليوم التالي في مزرعة شجرات البلوط الاثنتي عشرة . أخبرها برنت وستيوارت أن آشلي ويلكز ابن صاحب المزرعة سيعلن في الحفل خطبته للآنسة ميلاني هاميلتون ابنة عمه .. في الحقيقة كانت سكارليت تتمنى الزواج من آشلي لذلك حاولت أن تتماسك وأن تتصرف بشكل طبيعي ، ولكنها لم تستطع أن تعود إلى حيويتها ومرحها .. انصرف الأخوان دون إيجاد مبرر لصمت سكارليت المفاجئ .

شعرت سكارليت بحزن شديد ، فانطلقت بسرعة إلى الطريق في انتظار أبيها الذي كان في زيارة لمزرعة شجرات البلوط الاثنتي عشرة. لاحظت سكارليت أن أباها ينطلق على ظهر حصانه بسرعة خطيرة جدًا ويقفز فوق

الأسوار ، وحين اقترب من سكارليت وجهت له اللوم الشديد لهذه السرعة . ولقفزه فوق الأسوار رغم أنه سبق ووعد زوجته إيلين بعدم تكرار هذا الأمر ، وداعبت أباها بأن وعدته الاحتفاظ بهذا السر الخطير ! وفي شرفة البيت حذرها أبوها من الزواج من آشلي لأنها ستكون زيجة مزعجة جدّا ربما لاختلاف الطباع فقد كانت أسرة آشلي المعروفة باسم ويلكز لها اهتمامات بالشعر والموسيقى ، إلا أن آشلي كان يهتم كثيرًا بركوب الخيل والرماية وهي اهتمامات الرجال في تلك الفترة .

أثناء ذلك الحديث لاحظ جيرالد أن الأم إيلين تندفع للمساعدة في تعميد الطفل إيمي سلاتري حديث الولادة . أما إيمي العبدة السوداء والتي كانت في خدمة إيلين منذ طفولتها ، فلم تكن تعتقد أن إيلين ستقدم يد المساعدة لإيمي غير المتزوجة التي تنتمي إلى أسرة من البيض المتواضعين الذين يعيشون بالقرب من المزرعة !

كانت سكارليت تتعامل مع مسألة الأصل الرفيع هذا بأسلوب عاطفي مختلف ؛ فقد ورثت طباع أبيها الذي قضى جانبًا كبيرًا من حياته في أيرلندا بعد تورطه في قتل رجل آخر في مبارزة عدائية . كما أن أباها جيرالد قد فاز بخادمه العبد بورك وبمزرعته أيضًا في لعبه القمار ، ورغم أنه من أصل متواضع إلا أنه نجح في الاستحواذ على حب واحترام جيرانه . أما إيلين المرأة الهادئة والجادة والتي تنتمي إلى أسرة روبيلارد المقيمة في منطقة السفانا، فقد وافقت على الزواج من جيرالد بعد وفاة حبيبها الأول وابن عمها فيليب ، ولم تنس لأسرتها أنها تسببت في تجاهل فيليب ، وطرده من منطقة السفانا وإبعاده عنها .. لذلك قررت الزواج من جيرالد ذي الأصل المتواضع كنوع من الانتقام والتعبير عن غضبها وضيقها من سلوك أسرتها.

كانت سكارليت تتميز بقوة الإرادة والشخصية المتميزة ولكنها كانت تفتقد إلى الجمال .. وقد تعلمت سلوك وتصرفات نساء الطبقة الراقية من أمها إيلين ومامي ، واستغلت سحرها وفتنتها لتصبح تلك الحسناء التي يطاردها الجميع في أي مكان تذهب إليه !

في ذلك اليوم اشترى جيرالد عبدة سوداء من مزرعة شجرات البلوط الاثنتي عشرة واسمها ديلسي بهدف لم شملها على زوجها بورك . وأثناء تجهيز طعام العشاء توجهت ديلسي بالشكر للسيد جيرالد . وبينما كانت إيلين تؤدي صلاة الليل ، كانت سكارليت تفكر في تدبير خطة لخطف آشلي من ميلاني ، فقررت أن تواجهه في حفل العشاء بإعلان حبها له ، وهي على يقين أنها بذلك سوف تدفعه للتخلص من ميلاني ثم الارتباط بها . في تلك اللحظة سمعت سكارليت أمها إيلين تطلب من أبيها أن يطرد ملاحظ عمّال المزرعة اليانكي جوناس ويلكرسون ، عندئذٍ أيقنت سكارليت أن ويلكرسون هو والد ابن إيمي سلاتري المتوفي حديثًا .

صباح يوم الحفل ، حاولت سكارليت أن تبدو في أجمل وأبهى صورة، فاختارت الفستان الذي يتناسب مع جمال خصرها الذي لا يزيد عن سبع عشرة بوصة ، ونصحتها إيمي أن تأكل شيئًا قبل الحفل حتى تسيطر على شهيتها في حفل الشواء ولا تأكل بشراهة ممجوجة . أما إيلين فاعتذرت عن عدم الحضور لانشغالها الشديد في مراجعة حسابات المزرعة مع جوناس ويلكرسون قبل أن يغادر تارا ، وفي الطريق إلى الحفل التقت أسرة أوهارا مع نساء أسرة تارلتون حيث دار نقاش في أمور لها علاقة بالخيل وباحتمالات نشوب الحرب . ولم تهتم سكارليت بهذا الحديث ولا بحديثهن عن خطوبة آشلي .

وصلت كبريات عائلات المقاطعة إلى الحفل ، وقد لفت انتباه سكارليت أن هناك رجلاً وسيمًا ممشوق القوام وأسمر البشرة يطاردها بنظراته أينما ذهبت دون أن يبالي بوجود كل هذا الحشد ، وقد أثارتها جرأته هذه . وعلمت أن الرجل هو ريت باتلر ، سليل أسرة ثرية وأرستقراطية من شارلستون في جنوب كارولينا ، وقد طاردته الفضائح لخروجه ذات يوم مع فتاة دون مرافق لها .. وبعد ذلك رفض الزواج بها ، ودفاعًا عن شرف أخته طلب شقيق هذه الفتاة مبارزة ريت فقتله ريت في هذه المبارزة .

أحاط بسكارليت عديد من المعجبين والخطاب ، وكان تشارلز هاميلتون من بين هؤلاء المعجبين . وهو الشقيق الندل لميلاني . لم تُلق سكارليت بالاً إلى تشارلز ، فقد أولت اهتمامها إلى آشلي الذي لم يبال بالمعجبين المحيطين بسكارليت .. ربما لاهتمامه بميلاني .

استحوذ حديث الحرب على اهتمام الرجال جميعًا ووصلت بهم الحماسة إلى حد تصورهم إلحاق الهزيمة باليانكي خلال شهر أو أقل ، فاعترض ريت صراحة على هذا الحماس لأنه لا توجد مصانع مدافع في الجنوب ، ولا يوجد ما يكفي من السفن للإبقاء على موانئ الجنوب مفتوحة أثناء الحرب ، وأضاف أن اليانكي سينتصرون في هذه الحرب بسهولة ، ثم انصرف ريت قبل أن يُفجِّر غضب الرجال .

صعدت النسوة إلى الدور العلوي للاستمتاع بقيلولة بعد الظهر ؛ فانتهزت سكارليت الفرصة وتسللت إلى المكتبة وهمست لآشلي أن يتبعها وهناك اعترفت سكارليت بحبها له . ولدهشتها الشديدة اعترف آشلي أنه يسعى للزواج من ميلاني ، وأضاف أنه إن تزوج سكارليت فسوف تكرهه بسرعة نظرًا لاختلاف طباعهما . شعرت سكارليت بالإهانة فصفعته بقوة ،

فانصرف آشلي من الغرفة ، ولم تنتبه سكارليت إلى وجود ريت الذي وجه لها اللوم لسلوكها الذي لا يليق بسيدة من الطبقة الراقية .. لم تأبه به وانطلقت في غضب إلى الدور العلوي فسمعت هاني تخبر ميلاني أن سكارليت مندفعة ومتهورة ، وكعادتها دافعت ميلاني عن سكارليت ؛ الأمر الذي جعلها تشعر بالاشمئزاز فتقرر العودة مرة أخرى إلى الدور السفلي في ذات اللحظة ، التي أعلن فيها الرئيس لينكون بدء الحرب الأهلية واستدعاء جنوده .. عاود تشارلز إظهار إعجابه بسكارليت ، إلى حد أنه طلب منها الزواج به ، وحتي تستعيد سكارليت كبرياءها وكرامتها وتوجه صفعة إلى آشلي و هاني قبلت سكارليت الزواج من تشارلز !!

مضت الشهور التالية في ضباب كثيف ، وتزوجت سكارليت من تشارلز في اليوم السابق على زواج آشلي من ميلاني !

نشبت الحرب وانطلق الرجال للاشتراك فيها . وبعد شهرين فقط يموت تشارلز إثر إصابته بمرض الحصبة ، وتلد سكارليت طفلاً أسمته ويد هاميلتون وهو اسم قائد تشارلز ، ولا أحد يدري كم شعرت سكارليت بكراهية شديدة للقيود المفروضة عليها كأم وأرملة ، وللإثارة المبالغ فيها عن الحرب ثم لزواج آشلي !! فقررت شد الرحال إلى أطلانطا للإقامة عند ميلاني وعمتها بيتي بات وبصحبتها تابعتها بريسي وطفلها ويد

الجزء الثانى

كانت أطلانطا ملتقى عديد من خطوط السكك الحديدية ، وقد استقبلت طلائع الجيش وعسكرت بها بعض فرق الجيش والمستشفيات والمسابك والمصانع أثناء الحرب . وفي صباح أحد أيام شهر مايو عام 1862، طارت ميلاني وبيتي بات من الفرحة لاستقبالهم سكارليت ومن معها في بيتهم الكائن بشارع بيتش تري أي (شجرة الخوخ) . تحدث العم هنري شقيق بيتي بات مع سكارليت عن ثروة زوجها تشارلز والتي آلت إليها بوفاته .. دبت الطاقة والحيوية في أوصال سكارليت مرة أخرى ، وشعرت أن عليها القيام بواجب وطني بالتطوع في أعمال التمريض بإحدى مستشفيات الجيش المليئة بالجنود الجرحى، وقد لحقت بها ميلاني . وتلتقي سكارليت مصادفة بريت باتلر الذي يسخر منها لزواجها من تشارلز .. لقد أصبح ريت بطلاً لقدرته على اختراق الحصار المضروب على الجنوب .

وأثناء الحفل يقوم الدكتور ميد ، المواطن الأول في أطلانطا ، بتوزيع بعض السلال لتشجيع النساء على التبرع ببعض مجوهراتهن ، ولم تتردد سكارليت في إلقاء خاتم زواجها الكريه في إحدي هذه السلال .. رأت ميلاني أن سكارليت أقدمت على عمل بطولي ، فألقت هي الأخرى بخاتم زواجها من آشلي في السلة نفسها ، ثم يعلن الدكتور ميد عن عرض بقيام أي رجل بالرقص مع المرأة التي يختارها من أجل جمع مزيد من المال للمستشفى ، حيث قررت إدارة المستشفى إقامة حفل خيري لجمع التبرعات من أجل المرضى والجرحى . فيختار ريت أن يرقص مع سكارليت ، ودون أدنى اعتبار لصدمة الحاضرين تقبل سكارليت العرض

وتندفع إلى صالة الرقص . وهناك يفصح ريت عن إعجابه بجمال سكارليت وبروحها الرائعة . وتتظاهر سكارليت بالغضب من هذا الكلام .. لكنها كانت تعلم جيدًا أنه لم يقل غير الحقيقة .

سرعان ما تراجعت في آرائها عندما أرسل إليها هدية لها قيمتها وهي خاتم زواج ميلاني الذي استعاده مرة أخرى بتبرعه ! لكن ، وبعد سريان الشائعات ، يصل جيرالد والد سكارليت إلى أطلانطا لمواجهة ريت ، ويعود ومعه ابنته سكارليت إلى تارا غاضبًا .. ثم يعود مرة أخرى إلى أطلانطا للتحدث مع ريت وجهًا لوجه . وحين انتصف الليل عاد جيرالد إلى تارا لكنه عاد مخمورًا ومفلسًا من لعب الورق !! وفي الصباح ، وعدت سكارليت أباها أن تحفظ سره في مقابل أن يسمح لها بالعودة مرة أخرى إلى أطلانطا ، فيوافق الأب صاغرًا !

تعود سكارليت إلى أطلانطا .. وبعد مرور أسبوع على هذه الأحداث علمت سكارليت أن ميلاني تسلمت خطابًا من آشلي ، فاستبد بها الفضول لتعرف ما به. فتسللت سكارليت إلى غرفة ميلاني وعثرت على الخطاب وبدأت تقرأه . لم يتحدث آشلي في هذا الخطاب إلا عن رؤيته للحرب وآرائه حولها ، وشكوكه حول جدواها . فأدركت سكارليت بذكاء أنها لم تكن رسالة حب ! وتأكدت أن آشلي لا يزال يحبها هي ! بدأت الحرب تتصاعد وأثناء الحصار المضروب على الميناء، كان يتم تصنيع بعض المواد الضرورية للحياة ، مثل الطعام والملابس وغيرها من المواد المتعذر الحصول عليها ، وكان ريت وهو أشهر الاتحاديين الذين اخترقوا هذا الحصار بواسطة قوارب مختلفة ، ثم يقوم ببيع القطن وما اشتهر به الجنوب من

منتجات وبضائع لليانكي، في مقابل تلك المواد الضرورية ! وأصبح بذلك أهم وأحب رجل في المدينة برغم سمعته السيئة .

بدت سكارليت سعيدة ومستمتعة بما أتاحته الحرب لها من تجاوز كثير من العادات والتقاليد البالية . وتحولت إلى شخصية اجتماعية نشيطة ومتحركة ومتألقة. وبعد شهور من الالتزام والتأدب ، بدأ ريت يجاهر علنًا باحتقاره لمثاليات الاتحاديين ، ويعلن أنه يعمل من أجل ما يعود عليه شخصيًا بالفائدة وليس من أجل قضية الجنوب. وفي حفل عام ، لم يتردد في الإعلان أن الحرب ذاتها قد قامت من أجل المال وليس من أجل المجد أو الحق أو المبادئ !! حدث ذات مرة أن صرحت ميلاني أنها معجبة بآراء ريت ومستعدة للدفاع عنه ، وأعلنت أن آشلي قد عبر لها في رسائله عن آراء لا تختلف كثيرًا عن آراء ريت . كان لهذا التقارب في الآراء الذي أوضحته ميلاني بين حبيبها آشلي وذلك الوغد ريت ، أثره في إزعاج سكارليت.

كانت المدينة كلها تصب جام غضبها على ريت وأفعاله ، عدا عائلة هاميلتون وقد ظل ريت على اتصال بسكارليت حتى أهداها قبعة فرنسية أنيقة لتستبدل بها حجاب الحداد الأسود الذي ترتديه . ذات يوم أخبرت ميلاني سكارليت أن إحدى العاهرات وتدعى بيلي واتلنج أعطتها مبلغًا كبيرًا من المال تبرعًا للمستشفى ، وقد وضعت هذا المبلغ الكبير في منديل مكتوب عليه الحروف الأولى من اسم ريت . ولصدمتها من تصرفات ريت ألقت سكارليت بالمنديل في نيران المدفأة . في هذه الأثناء انتصر الاتحاديون في بعض المعارك المهمة ، وقد سـرت شـائعات بأن الحـرب سيتم حسمها في معـركة مهمـة ، توشـك أن


S

تنشب في مدينة جتسبيرج في بنسلفانيا . ومع بدء القتال سرت شائعة قوية أن هناك خسائر كبيرة قد لحقت بأطلانطا ، فاحتشد عدد كبير من النساء صباح اليوم التالي أمام الصحيفة التي نشرت هذا الخبر للحصول على قائمة بأسماء الضحايا. وقد تأكدت سكارليت وميلاني وبيتي بات أن آشلي كتبت له النجاة، بينما لقى الشقيقان التوأم ستيوارت وبرنت ثارلتون مصرعهما . وعمومًا لم يخل بيت في أطلانطا من فقيد !

خسر الاتحاديون معركة بتسبيرج .. وفي ليلة الكريسماس وصل آشلي في إجازة سريعة خاطفة ، وشعرت سكارليت بالرغبة في أن تراه ، وكم تمنت أن تتحدث إليه وحده على انفراد ؛ فتحقق لها ذلك في لحظات قبل انصرافه . فطلب منها أن ترعي ميلاني إذا لقي مصرعه فوعدته بذلك وقبلته بعاطفة وصدق ، وقبّلها قبلة خاطفة ، فصارحته مرة أخرى بحبها الشديد له ! لكنه انطلق ليلحق بالقطار وقد ارتسم تعبير الفزع على وجهه !

في مطلع عام 1864 خسر الاتحاديون الحرب ، وبدأت أطلانطا تعاني من البرد القارص والجوع ؛ وأخذ الناس يسبون ريت علنًا ويتهمونه بالمضاربة في أقواتهم وبالانتهازية والاستغلال .. وتلقت سكارليت خبرين مدمرين لها :

الأول أنه قد تم أسر آشلي ! والثاني أن ميلاني حامل ! .. علم ريت بخبر أسر آشلي وأبلغ سكارليت أن آشلي كان يمكن أن يسترد حريته إذا خادع الاتحاديين.. وأضاف أنه لو كان مكانه ما تردد في ذلك قط، فسألته سكارليت : لماذا لم يفعل هذا ؟ .. أجابها ريت باحتقار شديد : إن آشلي رجل مثالي جدًا وجنتلمان .

الجزء الثالث

في مايو 1864 استطاع الجنرال شيرمان قائد قوات اليانكي شق طريقه إلى قلب جورجيا ، وأصبح قريبًا من أطلانطا ، فأصبح الوضع بالغ الخطورة . ونجح ريت في إثارة غضب الدكتور ميد ، حين أعلن أن الاتحاديين غير قادرين على رد اليانكي على أعقابهم ، بينما كان كل إنسان في أطلانطا شديد الثقة في الاتحاديين . وكلما اقتربت الحرب من أطلانطا ، عادت القطارات وهي مملوءة بآلاف الجثث والجرحى .

لم تعد سكارليت قادرة على تحمل هذا الوضع ، فتسللت هاربة من المستشفى . وتصادف أن التقت ريت وقد ارتدي أبهي ثيابه رغم ظروف الحرب الصعبة ونقص المؤن الشديد، فاصطحبها في عربته لإعادتها إلى شارع شجرة الخوخ وفي الطريق التقيا مصادفة بطابور من العبيد .. تعرفت فيه سكارليت على بيج سام أو سام الكبير ، الذي كان يشغل وظيفة كبير العمال في مزرعة تارا . وقال لها في فخر وزهو : إن العبيد في طريقهم لحفر خنادق ومخابئ يختبئ فيها السيدات والسادة البيض حين تصل قوات اليانكي إلى هذه البلاد ، كما كانوا يحفرون هذه الخنادق لجنود الاتحاديين من قبل . وأثناء الطريق تشاجرت سكارليت مع ريت ، حين كشف لها عن استيائه منها لحبها الشديد لآشلي وطلبت منه إيقاف العربة ، وغادرتها في غضب !

أصبحت أطلانطا تحت الحصار . وتم استدعاء الرجال كلهم ، دون اعتبار للسن، للاشتراك في الحرب .. فالتحق العجوز جون ويلكز والد آشلي بالحرب ، بينما تم إعفاء جيرالد والد سكارليت لإصابة قديمة في

ركبته . فاقت أعداد اليانكي أعداد الاتحاديين ، حيث وصلت أعداد كبيرة من جثث جنود الاتحاديين إلى المدينة . وبدأ سكان أطلانطا في الفرار فزعًا ، وانضمت بيتي بات إلى فلول الهاربين إلى مدينة ماكون .. اشتاقت سكارليت للعودة إلى تارا ، ولكنها تذكرت أن عليها البقاء مع ميلاني كما وعدت آشلي ، خاصة أن موعد ولادتها قد اقترب وتعذر عليها الانتقال إلى أي مكان آخر ! لم تكن سكارليت تعرف أي شيء عن التوليد لكن خادمتها برسي أخبرتها أنها تعرف .

قام اليانكي بقطع كل خطوط السكك الحديدية ، إلا خط شيل هامر أطلانطا؛ فأصبحت سكارليت شديدة القلق والتوتر خاصة أن ميلاني تعاني المرض الشديد . وقد حضر العم هنري في إجازة سريعة وخاطفة ليخبر سكارليت أن جون ويلكز والد آشلي قد لقي مصرعه ! وجد ريت سكارليت تبكي في الشرفة فاقترب منها وقال لها إنه لا يحبها لكنه معجب بها ، وطلب أن تكون خليلته، فغضبت جدًا ، وانطلقت كالعاصفة صاعدة إلى الدور العلوي .

بعد ثلاثين يومًا من الحصار سقطت أطلانطا ، وأطبق اليانكي على خط السكة الحديدية جونسيرو الذي يقترب كثيرًا من تارا . ومما أحزن سكارليت أنها تلقت رسالة من أبيها ، يخبرها أن أمها إيلين وشقيقتها أصابتهن حمى التيفود القاتلة .. وحين اقترب شهر سبتمبر تعذر على سكارليت أن تعرف هل سقطت تارا في يد اليانكي وهل لازالت أسرتها على قيد الحياة .. لكنها كانت شديدة الاشتياق للعودة إلى بيتها في تارا ، وفي الوقت نفسه ، لم يكن في وسعها التخلي عن ميلاني في مثل هذه الظروف ..

بدأت ميلاني تشعر أن الطفل على وشك الخروج إلى الدنيا ، وطلبت من سكارليت أن تولي هذا الطفل رعايتها الخاصة إن هي فارقت الحياة .

بدأ جيش الاتحاد الانسحاب السريع من أطلانطا في اتجاه الجنوب وسقطت المدينة في أيدي قوات اليانكي .. وأصبح على سكارليت في هذه الظروف أن تبحث عن طبيب بسرعة لإنقاذ ميلاني من موت محقق ، ولم يكن أمامها غير الدكتور ميد فأسرعت إليه في المركز الطبي . وكم تألمت لمشاهدة طابور طويل من جثث الجنود القتلي والجنود الجرحي والذين يحتضرون .. طلبت منه سكارليت الذهاب معها لمساعدة ميلاني ولكنه اعتذر لأنه لا يستطيع التخلي عن هؤلاء الجنود وقد هرب الكثيرون من المدينة . في هذا الوقت طلبت سكارليت من خادمتها برسي مساعدة ميلاني كما قالت من قبل ، فاعترفت لها برسي أنها كذبت حين قالت لها إن لها تجارب سابقة في التوليد ، واغتاظت سكارليت وصفعتها ، ثم هرولت لمساعدة ميلاني بنفسها ، فلم تكن هناك وسيلة أخرى !

بعد جهد طويل ومؤلم أنجبت ميلاني طفلاً ذكرًا ، وأصبحت أطلانطا مدينة مهجورة ، وطلبت سكارليت من برسي الذهاب بسرعة إلى ريت لمساعدتهم على الهروب إلى تارا .

استولى جنود الاتحاد - عند انسحابهم - على عربة ريت وحصانه ، ولكنه استطاع الاستيلاء على حصان عجوز وعربة ، نَقَل فيها أولئك النسوة و ويد ابن سكارليت والطفل ابن ميلاني حديث الولادة . قام جنود الاتحاد - عند انسحابهم - بإشعال النيران في المسابك والمصانع والمخازن ؛ لمنع جنود اليانكي من الاستيلاء عليها أو الاستفادة منها . وأحست سكارليت بالامتنان الشديد لريت لقوته ورجولته وحسن تصرفه عند

الانطلاق بهم عبر الشوارع المشتعلة بالنيران ، وقال لها إن القيام بهذا العمل يُعد عملاً انتحاريًا خاصة أن جنود اليانكي يختبئون في غابات تارا وقد دُهشت سكارليت ، حين أخبرها ريت أنه سوف يبتعد عنها لفترة لأنه قرر الانضمام إلى جيش الاتحاد . وقبل أن يغادر المكان قَبَّل سكارليت وغمرها بمشاعر إنسانية دافئة ، وفجأة عاد إليها صوابها وتمالكت نفسها وصفعته بقوة . فقفز من العربة وابتعد ، فأمسكت هي اللجام وانطلقت بالعربة طوال الليل وهي تشعر بألم شديد وإعياء .. ولولا إحساسها أن ميلاني في طريقها للموت ، لما انطلقت بسرعة مجنونة . كانت تحلم باشتياق شديد إلى أحضان أمها إيلين وإلى الحياة في تارا. مرت سكارليت بالضِياع والمزارع والقصور ، وكانت كلها خالية أو محترقة، ولكن ما زالت تارا صامدة ! وعندما التقت بأبيها أخبرها أن أمها إيلين قد ماتت في اليوم السابق على وصولها .. وأن شقيقتها ما زالت تحت وطأة حمى التيفود .. ظهر على جيرالد الإعياء والعجز ؛ فقررت سكارليت أن توليه رعايتها . وقد أخبرها أيضًا أن جيش اليانكي قد جعل من تارا مركزًا لقيادته ؛ ولأن ديلسي كانت قد أنجبت طفلاً من قبل فكان من السهل عليها الاعتناء بابن ميلاني ! أما مامي فاستحال عليها العيش بعد إيلين . أصبح كل ما يحيط بسكارليت يدعو إلى الاكتئاب واليأس .. ولولا أنها استعادت ذكريات عائلتها وأجدادها واستلهمت قوتهم وعظمتهم ، لما استطاعت أن تنام في تلك الليلة .

حين استيقظت سكارليت شعرت بصداع مؤلم .. لكن الذي سبّب لها المزيد من الألم اكتشافها أن أباها مصاب بالعته وفقدان الذاكرة، حتى إنه ما عاد يدرك أن زوجته إيلين قد ماتت .

واضطرت سكارليت إلى الذهاب إلى مزرعة شجرات البلوط الاثنتي عشرة للبحث عن بقايا طعام ، فوجدت بعض الكرنب واللفت . كما وجدت أيضًا أجزاء كبيرة من المزرعة وقد احترقت تمامًا . هنا قررت سكارليت ألا تنظر إلى الماضي . وأن تنظر دائمًا إلى المستقبل وأقسمت ألاّ تجوع أبدًا ، وبدأت صورة الحرب تخبو وتختفي من مخيلتها .. ولأنها تعهدت أن تنشغل بتدبير الطعام للأفواه المحيطة بها في تارا ، فقد تحولت تحت وطأة الشعور بالمسئولية إلى إنسانة قوية وصلبة وسليطة اللسان ، واستمدت قوتها وصلابتها من ارتباطها العاطفي القوي بالأرض وبمزرعة تارا كلها .

ذات صباح اقتحم أحد فرسان اليانكي مزرعة تارا شاهرًا سلاحه فوق ظهر حصان قوي .. كان الفارس يبحث عن غنيمة أو أي شيء يمكن أن يسلبه ، فإذا به يجد سكارليت أمامه وجهًا لوجه فأطلقت عليه الرصاص من مسدس تشارلز فأردته قتيلاً ، في اللحظة نفسها التي وصلت فيها ميلاني أيضًا شاهرة سيف تشارلز . ولأول مرة تشعر سكارليت بوجود أموال كثيرة في جيوبه ، في البدء انزعجت سكارليت لفكرة قتل إنسان ، ولكنها سرعان ما عادت إلى تماسكها ، وشعرت بسعادة غامرة لأنها استطاعت الدفاع عن تارا ولأنها أخذت نقوده وسلاحه وحصانه ، بعد ذلك قامت سكارليت بزيارة مزرعة فونتين المجاورة لمزرعتها وتحدثت مع العجوز السيدة فونتين ، وشَكَت لها همومها وأحزانها ، فنصحتها السيدة العجوز بضرورة الاقتصاد في إنفاقها ، وأن تحتفظ بشيء للمستقبل حين تشعر بالبرد الشديد وبالضعف والوهن ، وحكت لها كيف كانت تساعد أباها من قديم الزمان في جمع القطن ، ولم تشعر في لحظة أنها تقوم بأعمال

الرعاع . عادت سكارليت إلى بيتها ، وفي الصباح بدأت في جمع القطن من الحقول .

نما إلى علم الأسرة ، وقد انتصف شهر نوفمبر ، أن اليانكي سيعودون مرة أخرى إلى تارا . وخشية فقدان الغذاء والبيت القديم، أرسلت سكارليت كل شخص إلى مخزن السبخ ليختبئ بالطعام والمواد الغذائية واحتفظت بابن ميلاني معها ، ورفضت مغادرة مزرعة تارا ووقفت على سلالم البيت لمواجهة جنود اليانكي . انتشر بعض الجنود حولها يحرقون ما لم يستطيعوا سرقته ، وحاول أحد الجنود سرقة سيف جد ويد الذي أصبح من حق ويد بعد ذلك ؛ فحاولت إقناع هذا الجندي بعدم المساس بالسيف ولكنه استشاط غضبًا واندفع نحو المطبخ وأشعل النيران في البيت ، ثم اختفى الجنود. وبجهد عظيم استطاعت سكارليت وميلاني إخماد النيران ، فازداد إعجاب سكارليت بميلاني مرة أخرى .

عندما اقتربت الاحتفالات بأعياد الكريسماس ، قام رجل يدعى فرانك كيندي، وبصحبة بعض الجنود الاتحاديين ، بزيارة مزرعة تارا بحثًا عن أي طعام للجيش الاتحادي . وحكي فرانك كيندي لسكارليت وميلاني كيف أمر الجنرال شيرمان بتسوية أطلانطا بالأرض، ومع ذلك لم يلحق ببيت العمة بيتي بات أي دمار . وأكد فرانك لسكارليت أن النهاية قد اقتربت .. بعد ذلك تقدم فرانك كيندي لخطبة سلين شقيقة سكارليت بعد سنوات من الإعجاب والهيام .

وفعلاً عندما اقترب شهر أبريل ، وضعت الحرب أوزارها .. فانزاح الهم عن كاهل سكارليت واستراحت وبدأت تخطط لمشاريع زراعة القطن

للحاق بالأسواق في العام التالي .. عادت الطرق آمنة كما كانت ، وقام الجيران بمساعدة بعضهم البعض للوقوف على أقدامهم مرة أخرى !

وعادت طوابير لا تنتهي من الجنود الاتحاديين ، ولم تتوان سكارليت لحظة في تقديم يد المساعدة لهم عند عبورهم تارا وبتزويدهم بالمؤن والغذاء .. قرر أحد الجنود البقاء في تارا للمساعدة في أعمال المزرعة ، وكان يدعي ويل بينتين من الطبقة العاملة في جورجيا وكانت له ساق خشبية ! واعتبرته سكارليت بحق، هدية السماء لهم ، وبعد ذلك بفترة وقع ويل في غرام كارين شقيقة سكارليت، التي لم تلحظ اهتمامه بها لانشغالها الدائم في الصلاة من أجل برنت ثارلتون .

ذات يوم وصل عبد من بيت العمة بيتي بات يدعي العم بيتر، وهو يحمل خطابًا من آشلي يفيد بأنه ما زال على قيد الحياة وسيصل قريبًا من ألينوي سيرًا على الأقدام .. مرت الأسابيع بطيئة حتى وصل آشلي إلى البيت فاندفعت ميلاني نحوه ، وتبعتها سكارليت مهرولة . فأمسك بها العامل ويل من قميصها، لإيقافها وليُذكِّرها برفق أن آشلي هو زوج ميلاني !!

الجزء الرابع

عاد ويل من رحلة إلى جونز بورو مُحَمَّلاً بأخبار سيئة مفادها أن بعض الأوغاد الشماليين الذين سبق وفودهم إلى الجنوب أثناء الحرب رفعوا قيمة الضرائب على تارا . كان هذا خبرًا سيئًا بالفعل حيث لم يكن لدى سكارليت ما يكفي من المال لدفع هذه الضرائب فذهبت إلى آشلي تسأله المشورة . فأجابها أنه لا يستطيع مساعدتها وأنه أصبح يفتقد حياة الجنوب القديمة . فتخبره سكارليت أنها لا تزال تحبه . وتتمنى أن تهرب معه إلى أي مكان . ويعانقها آشلي ويقبلها ويصارحها بحبه الشديد لها لكنه لا يستطيع أن يترك ميلاني لأنه يحب الشرف أكثر من حبه لسكارليت . ثم يلتقط حفنة من تراب تارا ويضعها في كف سكارليت ويقول إنه يعرف أنها تحب تارا أكثر من حبها له ! تتذكر سكارليت حبها الحقيقي لتارا وتتركه وتعود إلى بيتها وقد أقسمت ألا تفرض نفسها على آشلي مرة أخرى !!

ذات صباح وصل إلى تارا جوناس ويلكرسون ملاحظ العمال السابق المطرود من المزرعة . وكانت بصحبته السيدة إيمي سلاتري .. إنه يعمل الآن لصالح مكتب فريدمان ويرتدي ملابس أنيقة تنم عن الثراء ويفصح ويلكرسون عن رغبته في شراء المزرعة لصالح إيمي وتفهم سكارليت فورًا ، إنه هو الرجل الوغد وراء رفع الضرائب ليبعد أسرة أوهارا عن المزرعة ، فتلعن هؤلاء الزوار وتطردهم . وبوضاعة يُذكِّرها ويلكرسون أنها ما عادت ثرية ، وما عادت قوية ! وقبل أن يرحل في عربته الأنيقة . تبصق سكارليت على وجهه !! وفي حالة يأس شديد تقرر العودة إلى

أطلانطا للزواج من ريت بتلر . إن فكرة الزواج من ريت تزعجها كثيرًا . لكنها علمت بمدي ثرائه مما سلبه من كنوز الاتحاديين . لم يكن لدي سكارليت أموالاً تكفي حتى لشراء ثوب جديد يليق بالمناسبة فأخذت إحدي ستائر أمها إيلين لتصنع منها ثوبًا . وقررت أنه إذا رفض ريت الزواج بها فستوافق على البقاء خليلة له من أجل الحفاظ على تارا، وتبدي مامي استعدادها لصنع هذا الثوب ؛ بشرط أن تبقي وصيفة ومرافقة لها .

وصلت سكارليت ومامي إلى أطلانطا ، أصابتهما دهشة شديدة لما كانت عليه الحال . كانت معظم البيوت مدمرة أو محروقة والشوارع مليئة بأعداد هائلة من جنود اليانكي المتنطعين وانهارت الكثير من العائلات المرموقة . وعلمت سكارليت من العمة بيتي بات أن ريت محكوم عليه بالسجن لقتله رجلاً أسودَ بزعم أنه أهان امرأة بيضاء . واندهشت سكارليت كثيرًا حين سألتها العمة بيتي بات : هل جماعة كوكلوكس كلان لها نشاط فعال في تارا ؟

في صباح اليوم التالي ذهبت سكارليت لزيارة ريت في السجن، حاولت أن تبدو ثرية لكي تتمكن من إغرائه وإقناعه بما تهدف إليه ! لكن ريت كان ذكيًا فقد لاحظ التغيرات على يدها الرقيقة الناعمة والتي أصبحت خشنة وسوداء . فأدرك بذكائه الهدف الحقيقي وراء هذه الزيارة ، إنه يرفض الزواج منها ويرفض أيضًا أن تكون خليلة له. ويخبرها أنه حتى لو ساعدها بالمال فسوف يتتبعه اليانكي ويصادرون أمواله بل وثروته كلها، ويسخر منها حين يدعوها لحضور إعدامه شنقًا. تغادر سكارليت المكان وقد شعرت بالمرارة والخزي والمهانة !

خرجت سكارليت من السجن المحبوس به ريت غاضبة ومنفعلة .. وأثناء سيرها التقت فرانك كيندي وهو يركب عربة صغيرة ذات مقعد واحد ، يجرها حصان وأخبرها أنه ينوي فتح ورشة نجارة ونشر أخشاب ؛ حيث إنه مشروع مربح جدًا نظرًا لتزايد عمليات إعادة الإعمار في أطلانطا . ورغم أن فرانك كيندي كان خطيب سالين شقيقة سكارليت ، إلا أنها عقدت العزم على الزواج منه من أجل دفع الضرائب المستحقة على تارا فأخبرت فرانك أن سالين تنوي الزواج بشخص آخر ، وقد أكد هذه الكذبة أن سكارليت ، بعكس كل الجنوبيين ، قررت أن المال الآن أهم من الكبرياء !

بعد انقضاء أسبوعين تزوج فرانك كيندي من سكارليت وزودها بالمال المطلوب لسداد دين تارا ، ضاربةً عرض الحائط بأحزان شقيقتها سالين والشائعات التي نهشت سمعتها . واستطاعت الضغط على فرانك للدخول في أعمال ملتوية ومضاربات ؛ مما أدى إلى انهيار فرانك ، فلم تتوقف عند جموده هذا وذهبت إلى مخازنه وراجعت كشوف الحسابات فأدركت أن فرانك يدير عمله بأسلوب عقيم . فبعض أصدقائه يدينون له بمبالغ مالية كبيرة كان يشعر بالخجل من تحصيلها . فكرت سكارليت جيدًا بأن في وسعها دخول مجال الأعمال الخاص بالرجال بما فيه من عنف وقسوة، وفكرت جديًا في عمل مشروع ورشة النجارة .

استطاع ريت استخدام دهائه وطرقه الملتوية في الخروج من السجن، وذهب إلى ورشة سكارليت وهنأها على زواجها من فرانك كيندي . ولم يُخفِ سخريته منها لاستمرار حبها لآشلي ، كما أبدى لها استعداده أن يقرضها المال الذي تطلبه بشرط ألا يستفيد منه آشلي .

ورغم ضيق وكدر فرانك .. أصبحت سكارليت سيدة أعمال جادة وجامدة ولا تعرف الرحمة ، وقضت كل وقتها في إدارة المشروع مستخدمةً كل الطرق لتحقيق أي ربح ممكن ، فأصبحت سيدة الأعمال الوحيدة في أطلانطا ، وانطلقت حولها الشائعات التي تُعبر عن الاستياء من هذا الوضع ، ولحرجه وخوفه من سكارليت ظن فرانك أنه إذا أنجبت سكارليت طفلاً ، سيأخذها هذا الطفل بعيدًا عن الألم الذي تسير فيه !

في إحدى الليالي وصل توني فاونتين ابن أحد مزارعي المقاطعة وكان في حالة رعب لأنه قام بقتل جوناس ويلكرسون ورجلاً أسود ، فقد كان ينصح بعض الرجال السود الذين تحرروا مؤخرًا ، بأن في وسعهم اغتصاب نساء من البيض ، فقام هذا الرجل الأسود بالاعتداء على شقيقة زوجته لذلك نصحه آشلي ، الذي صاحبه في ارتكاب هذه الجريمة ، أن عليه الفرار لأخذ نصيحة سكارليت وفرانك . انصرف توني عندئذٍ ، وقد اقتنعت سكارليت أن الجنوب أصبح منطقة محفوفة بالخطر الشديد ، واستبد بها الخوف أن تستولي حكومة اليانكي القوية والسود الـمُحَرَّرين على كل أموالها وثروتها . وفي وقت لاحق أخبرت فرانك أنها حامل ، وفي الوقت الذي شعر فيه فرانك بالفرحة والزهو كانت هي مشغولة بالتفكير في منظمة كلوكلوكس كلان وهي جماعة تأسست في ذلك الوقت لحماية البيض من عنف السود المحررين ! وشكرت الله أن فرانك ليس من بين أعضاء هذه المنظمة التي قررت حكومة الشمال سحقها .

بدأت سكارليت البحث عن الرجل المناسب الذي يمكنه إدارة هذا المصنع أثناء فترة انشغالها بالمولود الجديد ، ولخوفها مما يحدث في أطلانطا بدأت عقد صفقات أعمال مع اليانكي رغم كراهيتها الشديدة لهم . في هذه

الأثناء حملت إليها الأخبار أن أباها جيرالد قد مات ، فعادت إلى بيتها مرة أخرى حزينة ومهمومة !

وصلت سكارليت إلى تارا للمشاركة في تشييع جنازة أبيها ، وهناك أخبرها ويل بنتين أن شقيقتها سالين كانت في حاجة إلى المال واستطاعت بشتى الطرق دفع أبيها لأن يقسم قسم الولاء للاتحاد . وكان الرجال الذين يقسمون قسم الولاء للاتحاد يحصلون على تعويض لما لحق بممتلكاتهم من خسائر أثناء الحرب . واستغلت سالين حالة أبيها المرضية فجعلته يوقع على أوراق الولاء هذه .. لم يكن واعيًا لذلك ، وحين أفاق حاول التراجع وأعلن سخطه وامتطي صهوة جواده وظل يركض به ، وحين حاول قفز السور سقط ومات.. حزنت سكارليت لذلك، ولكن حزنها ازداد حين أخبرها ويل بعزمه الزواج من شقيقتها سالين ليضمن استمرار البقاء في تارا .

عندما دخلت سكارليت تارا عاد إليها الحنين والمشاعر الدافئة لهذا المكان ، وقد قام آشلي بكل مراسم الجنازة والدفن .. كما ألقى ويل كلمة قصيرة ، ولكي يمنع الناس من الكلام عن سالين أعلن أمامهم خطوبته لها ! .. بعد الجنازة أهدت سكارليت إلى الخادم بورك ساعة أبيها الذهبية تقديرًا لولائه وخدماته . وعندما علمت أن آشلي يخطط للذهاب إلى نيويورك مع ميلاني عرضت عليه أن يشاركها في إدارة المصنع على أن يعيش في أطلانطا فرفض هذا العرض ؛ لأنه لا يقبل أن يعيش على إحسان وفضل سكارليت ، وكفي أن حبه لها صار مصدر عذاب له . بكت سكارليت لسماعها هذه الكلمات ، وعندئذٍ اندفعت ميلاني إلى الغرفة ، وعندما عرفت برفض آشلي هذا العرض حاولت إقناعه بقبول وبتسديد بعض دين

سكارليت عطفًا ورحمة بها وبأسرتها، كما رأت أنه إذا نشأ ابنها بو في أطلانطا فهذا أفضل له كثيرًا ، بدلاً من أن ينشأ في الشمال المليء بالعداء والكراهية لهم . وأخيرًا قبل آشلي هذا العرض على حساب كرامته !

بعد زواج ويل وسالين تدخل كارين الدير ، بينما ينتقل آشلي وابنه الصغير بو و ميلاني إلى منزل صغير في أطلانطا قريب جدًا من منزل بيتي بات . وقد جعل تفاؤل ميلاني وكرمها وحفاظها على قيم الجنوب من منزلها مركزًا للعائلات الجنوبية المحافظة على قيمها وكرامتها ، وأثبت آشـــلي جدارة لا مثيل لها في تحقيق أرباح هائلة من العمل في مجال العبيد المُحَرّرين ؛ لذلك قررت سكارليت استخدام من صدرت ضدهم أحكامًا من قبل ، للعمل في مصانعها .

أخيرًا أنجبت سكارليت فتاة دميمة أسمتها إيلالورينا وأمرها فرانك بعدم العودة إلى العمل .. فقد أصبحت أطلانطا مدينة خَطِرة مما جعل فرانك يخاف عليها ، فهو يزعم أن اليانكي قرروا اقتلاع جذور منظمة الكلوكلوكس كلان، وساد الغضب الشديد مناطق مثل شانتي تاون . وقد استأجرت سكارليت رجلاً يدعي أرشي ليعمل مرافقًا أو حارسًا لها ، وكان بعين واحدة وساق واحدة وكان سيئ الخلق رغم أنه كان يعمل في مرافقة النساء داخل المدينة . وحين علم بعزم سكارليت استئجار المحكوم عليهم، أو الصادر ضدهم أحكامًا للعمل في مصانعها ، هددها بالانسحاب من العمل ، وقال لها إنه سبق أن حُكم عليه بالسجن لمدة أربعين سنة لقتله زوجته المنحرفة ، وأضاف أن تشغيل من صدرت ضدهم أحكامًا أسوأ ألف مرة من شراء العبيد .

علمت سكارليت أن المجلس التشريعي في جورجيا رفض منح العبيد حقوق المواطنة ، وتأكدت أن هذا الأمر سيجعل اليانكي أكثر ضراوة في أطلانطا . فقد سبق واستأجرت عشرة من الصادر ضدهم أحكامًا للعمل في مصانعها وعينت رجلاً من اليانكي الأيرلنديين ، يُدعي جوني جاليجير ، ملاحظًا عليهم .. وقد رَوّع هذا السلوك سكان أطلانطا . ونَفَذ أرشي تهديده واستقال من العمل بينما حقق جوني جاليجير أرباحًا هائلة من تشغيل هؤلاء المُدانين . ومما سبب لها ضيقًا شديدًا، أن جاليجير تفوق كثيرًا في إدارة العمل على آشلي !!

ذهب ريت لزيارة سكارليت وليُذكّرها بالأموال التي اقترضتها منه، وطالب بردها فورًا لأنها أخلت بشرط عدم تشغيل آشلي في المصنع واتهمها أنها امرأة بلا ضمير .. فأجابته أنها لم يكن أمامها أي خيارٍ آخر ، ووعدته أن تكون امرأة طيبة وذات ضمير حين تُصبح ثرية وآمنة .

وبمجيء شهر مارس ، أصبحت جورجيا خاضعة لحكم عسكري شرس ، لرفضها منح حق التصويت للسود ، وتصاعد الصراع بين السود الـمُحَرَرين وبين الاتحاديين وجنود اليانكي ومنظمة الكلوكلوكس كلان .. ذات يوم حين كانت سكارليت تقود عربتها في مدينة شانتي تاون ، التقت بيج سام الذي أخبرها أنه مطلوب القبض عليه لقتله أحد جنود اليانكي ! فوعدته سكارليت بتهريبه إلى مزرعة تارا على أن يلتقي بها مساء اليوم ذاته وفي ذات المكان . ثم عادت إلى المصنع لتكتشف أن جاليجير يقوم بتجويع العمال الـمُدانين ويضربهم بالسياط ، فثارت عليه.. ولكنه هددها بالاستقالة إن لم تطلق يده ليتصرف معهم كما يشاء ، ويذكّرها بأنه قد ضاعف إنتاج المصانع منذ تولي الإدارة ، فالتزمت الصمت! وفي طريق

عودتها إلى شانتي تاون قام رجل أبيض فقير بالاعتداء عليها هو وصديقه الأسود، وسرعان ما ظهر بيج سام ليقاوم المعتدين ، ثم يقفز إلى عربة سكارليت ويقودها بعيدًا عن الخطر .. إلا أنها انتابها حالة تشنج شديدة !

في تلك الليلة ، أرسل فرانك زوجته سكارليت للبقاء مع ميلاني ؛ حيث سيحضر هو وآشلي اجتماعًا سياسيًا . وفي بيت ميلاني ، ظهر التوتر العصبي على أرشي ويظهر ريت ويسأل ميلاني عن المكان الذي ذهب إليه آشلي وفرانك قائلاً : إنها مسألة حياة أو موت ؛ فأخبرته بذهابهما إلى مزرعة ساليفا القديمة ، فاختفى ريت في الحال . وهنا تخبر ميلاني صديقتها سكارليت أن كلاً من آشلي وفرانك عضوان في منظمة كلان مثل معظم الرجال حولهم ، وأنهما ذهبا للانتقام ممن اعتديا عليها .

فجأة ظهر أحد ضباط اليانكي ليسأل عن مكان الاعتداء عليها ، وفي النهاية يعود آشلي وريت ورجل يدعى هوف السينج ويتظاهرون أنهم مخمورون !! ويخبر ريت الكابتن أنه ، وبقية الرجال ، قضوا ليلتهم في بيت المرأة اللعوب بيلي واتلنج.. لم يصدق الكابتن ما قاله ريت ، ولكنه انصرف لأنه كان صديقه . وبعد ذلك يأمر ريت أرشي أن يحرق ملابس الكلوكلوكس كلان ، وأن يتخلص من الجثتين . لم يكن آشلي مخمورًا بل مصابًا.. فأدركت سكارليت أن كل ما جري أمام الضابط كان تمثيلية ، ولانشغالها الشديد بإصابة آشلي لم تدرك سكارليت اختفاء فرانك فسألت عنه ، فأخبرها ريت أن فرانك قد أصيب بطلق ناري في رأسه ، وقضي نحبه .

في اليوم التالي ، تم استدعاء بيل وآشلي وريت من قِبل محكمة تابعة لليانكي لسؤالهم عن أحداث الليلة السابقة ، وتم إخلاء سبيلهم. وبدأت النساء الاتحاديات المقيمات في أطلانطا تتناقل الكلام حول علاقة أكيدة تربط سكارليت بأحداث تلك الليلة .

حبست سكارليت نفسها في غرفتها لحزنها الشديد على فرانك ، ولإحساسها أنها دفعت فرانك للزواج بها ليلقي حتفه . يحضر ريت للقاء سكارليت ويطلب خطبتها ، ولكنها ترفض لأنها لا تشعر نحوه بالحب ! لكنه يستطيع إقناعها بوسائله الملتوية ، فتقبل أخيرًا . ويخبرها أنه في طريقه إلى رحلة طويلة ، وسوف يعقد قرانه عليها فور عودته من هذه الرحلة .. غضبت أطلانطا كلها من صفقة الزواج هذه ، ولكن سكارليت لم تهتم لهذه الثرثرة، وتزوجت من ريت وذهبا معًا إلى مدينة نيو أورليانز لقضاء شهر عسل طويل !

الجزء الخامس

أمضيت سكارليت وريت شهر عسل رائع في نيو أورليانز . ورغم ما أنفقاه من مصاريف باهظة ، إلا أن سكارليت رأت في نومها ذات ليلة كابوسًا فظيعًا . فقد رأت أنها تجري في ضباب كثيف يُغلف تارا وهي تبحث عن شيء مهم ، ولكنها لا تعرف ما هو . لكن ريت هدّأ من روعها وقال مداعبًا إنها لم تعتد بعد حياة الاستقرار والأمان، ووعدها أن كل ما تريده من أموال ستجده لديه إلا ما تنفقه على آشلي لأنه لا يحبه .

بقيت نساء أطلانطا على غضبهن من سكارليت لأنها أتاحت الفرصة لجماعة كلان لإحداث العنف في تلك الليلة ، وقررن نبذ سكارليت وريت من مجتمع أطلانطا كله ، ولكن ميلاني دافعت عن سكارليت بقوة وطلبت منهن عدم لفظ سكارليت من المجتمع تمامًا .. لكن سكارليت لم تعد تهتم بمثل هذه الأمور ، وقامت بافتتاح عدة مشاريع ووطدت علاقاتها بالجمهوريين الفاسدين ، والرعاع من الشماليين ، في سبيل مصلحتها فقط . كان شاغلها الأعظم أن تكون ثرية وقوية ، ولم تهتم أبدًا بمقاطعة الموالين للجنوب القديم لحفلاتها .

بشكل عام ، كانت سكارليت مستمتعة بحياتها مع ريت رغم سخريته منها ومعاملتها أحيانًا دون اكتراث . ذات مساء فزعت سكارليت حين عرفت أنها حامل . وقررت إجهاض هذا الحمل لكن ريت رفض ذلك بشدة خوفًا على سكارليت من الموت؛ فأنجبت له طفلة أحبها ريت بصورة أذهلت المجتمع حوله . وأطلق عليها اسم أوجيني فيكتوريا ، ولكن حين

لاحظت ميلاني أن عين الطفلة لونها أزرق مثل العلم الاتحادي .. أصبح اسم الشهرة لها بوني بلو باتلر أي الفتاة الجميلة ذات العيون الزرقاء .

ذهبت سكارليت إلى المصنع لمراجعة الدفاتر مع آشلي ، الذي يخبرها أنه يشعر بالغيرة الشديدة من ريت . وحين شعرت بالنشوة من استمرارية حب آشلي لها عادت إلى بيتها وطلبت من ريت أن يناما في فراشين منفصلين ، بمعني أنها تريد إنهاء علاقتها الجسدية به ؛ فأجابها ريت دون اكتراث أنه يبحث عن امرأة أخرى تشاركه الفراش.

قرر ريت ألا يترك بوني للمعاناة في أطلانطا ؛ لأن المجتمع هناك قد لفظها هو وسكارليت ؛ فبذل جهدًا خارقًا لاستعادة احترام أمهات الجنوب القدامي ، وقطع علاقاته بالحزب الجمهوري ، وسعي للعمل من أجل دفع الديمقراطيين إلى السلطة .. فاستطاع بالتدريج ، اكتساب تعاطف مجتمع أطلانطا له ولابنته بوني رغم احتقار هذا المجتمع لعلاقات سكارليت مع مجتمع الجمهوريين. وما أن بلغت بوني العامين من عمرها حتى لاحظ ريت خوفها الشديد من الظلام، فسمحت سكارليت أن تنام بوني في غرفة أبيها بشرط أن يضيء لها مصباحًا صغيرًا كل ليلة .

أقامت ميلاني حفلاً بعيد ميلاد آشلي ؛ فذهبت سكارليت إلى لومبرياد لتعوق آشلي عن الحضور .. تحدثت سكارليت وآشلي في شجن وحزن عن الأيام الجميلة التي سبقت الحرب ، وعرفت سكارليت من حديث آشلي أنه يفتقد بشدة أسلوب حياة السيد الجنوبي ، وشعرت أن عاطفتها تجاه آشلي قد وهنت وخبت ، وأن ما بقي هو بعض مشاعر الصداقة . فبدأت في البكاء فاحتضنها آشلي ليهدّئ من انفعالها ، تنبهت سكارليت ونظرت

حولها فوجدت أن أرشي وإنديا شقيق آشلي ينظران إليهما ! وطبعًا أخبر أرشي السيد ريت بما رآه وأدركت سكارليت أن القصة سرعان ما تنتشر ، فلم تجرؤ على الذهاب للحفل لمواجهة المجتمع.. ولم تكن تعبأ بأي شخص إلا ميلاني . لذلك عادت وقررت مرة أخرى الذهاب للحفل، وما أن دخلت حتى ساد الصمت فجأة وأخذ الناس يحدقون فيها . فنهضت ميلاني واتجهت بقوة نحو سكارليت وأمسكت يدها وطلبت منها استقبال ضيوف الحفل معها !!

في تلك الليلة قبعت سكارليت في غرفة نومها ولم تستطع محو صورة ثقة ميلاني الشديدة فيها ، وقامت وهبطت الدرج لتبحث عن بعض الشراب . فوجدت ريت في حالة غضب عارم .. لكنه يعود ويخبرها أنه يحبها جدًا وأنه سيقتلها إن هي لم تتخلص من التفكير في آشلي !! .. ويقبّلها، ثم يحملها ويصعد بها إلى غرفتها ويقضيان ليلة شرسة . لكن حين استيقظت سكارليت من النوم اكتشفت أنها تحمل عاطفة جديدة تجاه ريت ، لقد أصبحت عصبية ولا تريد رؤيته مرة أخرى.. وفعلاً يخرج الرجل ولا يعود ، لبضعة ليال . وحين عاد قال لها بلا مبالاة إنه كان يقيم عند بيلي اللعوب ، ويتبادلان كلمات عنيفة وجارحة ثم ينهي كلامه معها بإبلاغها أنه سيصحب ابنته بوني في رحلة طويلة .

قضى ريت في الخارج مدة ثلاثة شهور وافتقدته سكارليت كثيرًا واكتشفت أنها حملت في تلك الليلة التي سبقت مغادرة ريت للبيت ، فشعرت بفرحة غامرة لهذا الحمل . لكن حين عاد ، سخر ريت من سكارليت ثم أخبرته بحملها الجديد فقال لها ساخرًا : أبشري فربما

ستحتاجين إلى إجهاض هذا الحمل .. تغضب سكارليت جدّا من كلامه فتندفع نحوه ، ولكنه يخطو بعيدًا عن طريقها فتسقط سكارليت وتتدحرج على سلم البيت . ونتيجة لذلك تفقد الطفل وتشرف على الموت . ولم تتخل ميلاني عنها .. بكى ريت لشعوره بالذنب ، وأعلن أنه يحب سكارليت ولا يمكن أن يتخلى عنها ، ويخبر ميلاني أنه يخشى أن يكون قد تسبب في موتها بغيرته الحمقاء .

بعد شهور تعود سكارليت إلى تارا للتعافي مما أصابها ، ويطلب ريت من ميلاني أن تُقنع آشلي بشراء مصانع سكارليت . وأخبرها بأنه مستعد لتزويده بالمال اللازم لإتمام عملية الشراء هذه دون أن يعلم أي إنسان بذلك ، ظنّا أنه إن تم هذا، فقد يتمكن بو من الالتحاق بجامعة هارفارد ، وأن تقل حدة القلق عند سكارليت. فتوافق ميلاني بطيبة شديدة ، ويشتري آشلي المصانع . ويقيم الأربعة احتفالاً هادئًا. لكن ترفض سكارليت محاولات آشلي طرد جوني جاليجير والتخلي عمن صدرت ضدهم أحكام ! ويعلق آشلي بقوله : إن المال الذي يأتي عن طريق ملتوٍ لا يحقق السعادة لأي إنسان . فتعترض سكارليت على هذا ، ولكن ريت يسألها بهدوء : هل حقق المال لها السعادة ؟! .. فتصمت !

مضت الأيام وكرس ريت وقته كله من أجل ابنته بوني والحزب الديمقراطي ، وأعلن أنه هو وآشلي قد تخليا عن منظمة كلوكلكس كلان .

أما بوني فقد أصبحت مدللة ولا يمكن لأحد أن يرفض لها طلبًا ، وكانت تحب ركوب الخيل وقفز الحواجز مثل جدها جيرالد وطلبت من أبيها شراء جواد لها . وفعل ريت ذلك .. ودعته يومًا لمشاهدتها وهي تقفز

من فوق سور مرتفع وحين رأتها أمها سكارليت، تذكرت ما قاله أبوها جيرالد يومًا : انظري لي وأنا أقفز فوق هذا. وكانت هذه نفس كلمات بوني وآخرها .. فقد سقطت على الأرض ميتة ، أُصيب ريت بصدمة مفزعة ورفض أن يترك جثمان ابنته الصغيرة لدفنها لأنها كانت تخاف الظلام .. لكن ميلاني ظلت تقنعه بخطأ ما يفعـــل وما يقول حتى تمـــت مراسم الدفن ، وبدأ ريت وسكارليت يتبـادلان الاتهامات الشديدة حـــول المتسبب فيمـا يحدث.

مرت الأسابيع وحاولت سكارليت استعادة حب ريت .. لكنه قد أدمن الشراب وأقام عند بيلي اللعوب ، واشتاقت سكارليت لرؤية الأصدقاء القدامي . لكنها لم تجد أحدًا بجانبها لأنها تسببت في إقصائهم عنها ، فلم تجد إلا ميلاني وآشلي والعمة بيتي بات .

ذهبت سكارليت لقضاء بعض الوقت في مدينة ماريتا في جورجيا ، ولكنها تتسلم رسالة مفادها أن ميلاني تموت فعلاً ، فتهرول إليها وتجدها على فراش الموت لأن الأطباء حذروها من معاودة الحمل لخطورته على حياتها .. لكنها أصرت على الحمل . فلم تتحمل ، وها هي ذي تموت .. لم تتحمل سكارليت فراقها لأنها كانت سندًا قويًا لها وقد دافعت عنها ميلاني كثيرًا ، برغم أنها أخطأت في حقها كثيرًا . وتعدها وهي على فراش الموت برعاية آشلي وابنها بو ، وتموت ميلاني ، فتفقد سكارليت أهم سند لها في الحياة. كانت سكارليت تظن أنها ستجد الراحة والحماية والرحمة عند آشلي .. لكن بدلاً من ذلك وجدته إنسانًا ضعيفًا وهزيلاً ومكسورًا . فأيقنت أنها أحبت وهمًا في خيالها وليس ذلك الرجل الواقف أمامها .

بعد مرور كل هذه الأحداث ، عرفت سكارليت أنها لم تحب أحدًا غير ريت ، وحين ذهبت إليه ترجوه أن يعود إليها ، يرفضها تمامًا ويرحل . تُصاب سكارليت بصدمة ، ولكنها تتماسك وتقرر أنها يجب أن تبقى واقفة صلبة وقوية ؛ حتى تعمل على استعادة ريت مرة أخرى .

وبعد كل هذه الأحداث والصدمات ، وجدت نفسها تمشي وحيدة وسط ضباب جورجيا الكثيف ، كما كانت ترى في كابوسها . فقررت العودة مرة أخرى لتعيش في تارا لعلها تجد الراحة والدعم عند مامي وعند سكان تارا القدامي الذين لا يعرفون الهزيمة ولا الانكسار . وشعرت أخيرًا بالراحة وبالقوة معًا ، ورفضت التفكير في الألم والعذاب حتى اليوم التالي على الأقل ، وجلست فوق مقعدها المفضل وهي تقول في ارتياح وثقة : غدًا يوم جديد !!



جيـن أوســتن

Jane Austin

إيمــــا

Emma

1- إيما وود هاوس ؛ بطلة هذا العمل والشخصية المحورية فيه ، شابة جميلة تبلغ من العمر الحادية والعشرين .. لها شقيقة تكبرها في السن ، وقد ماتت عندما كانت إيما فتاة صغيرة .. أمَّا أبوها فهو رجل طيب . بعد وفاة الأم ، أشرفت على تربية إيما مس تايلور المربية التي كانت موضع حب وتقدير وثقة الأم . وتبدأ القصة بزواج مس تايلور من السيد ويستون ؛ وبذلك بقيت إيما وحيدة تقضي وقتها في التأمل والزيارات ، وممارسة لعبة الشطرنج مع أبيها الذي كان يحبها ويدللها. أثناء ذلك أقبل عليها السيد جورج نايتلي ، الذي تزوج أخوه جون من إيزابيلا شقيقة إيما الكبرى ، ويأخذهم الحديث إلى الوضع الذي ستبقي عليه إيما ، خاصة بعد زواج مربيتها مس تايلور ، التي أصبحت الآن مسز ويستون .. بينما يبدي السيد وود هاوس ، والد إيما إشفاقه على المربية لزواجها من السيد ويستون ، وإحساسه أنها غير سعيدة في زيجتها هذه؛ خاصة افتقادها حياة أسرة وود هاوس . وهنا تتدخل إيما في الحوار وتؤكد أن الزواج موفق للغاية خاصة وأن مس تايلور متوافقة تمامًا مع ويستون .

2- يبدأ الفصل الثاني بحكاية السيد ويستون .. لقد سبق لمستر ويستون أن تزوج من الآنسة تشيرشيل والتي كانت في وضع اجتماعي أفضل منه ، ولكن كانت حياتها صعبة ؛ ويمكن القول إنها غير موفقة لأنهما كانا

يعيشان في مستوى أعلى من قدراتها المالية . وعندما ماتت تركت له طفلاً، فعهد به ويستون لأسرة زوجته الراحلة لتتولى تنشئته ، وقد كبر الولد وأصبح يحمل اسم العائلة التي تولت تربيته ؛ أي عائلة جرانك تشيرشيل. وظل على اتصال دائم بالسيد ويستون، وكان هذا الصبي مثار فضول سكان هاي بيري ، وهي المدينة التي عاشت فيها أسرة ويستون وأسرة وود هاوس .

3- نتعرف في هذا الفصل إلى مجموعة من الشخصيات الثانوية ، مثل الفقيرة مسز بيتس وزوجها السيد بيتس وابنتها الآنسة بيتس!! والسيد التون ، والسيدة/ جودار مديرة مدرسة داخلية .. ثم أهم الشخصيات، وهي شخصية هارييت سميث الفتاة الصغيرة التي تحتضنها إيما . وتري إيما أن أقارب هارييت والمعروفين باسم مارتن ، أجلاف وغير جديرين بالفتاة هارييت ، كما ترى أيضًا أنها الأَوْلى برعايتها وتربيتها .

4- تقوم إيما بتقديم هارييت سميث إلى دائرتها الاجتماعية ، وأصبحت صديقة ومرافقة لها بدلاً من السيدة ويستون .. كانت هارييت أحيانًا تحكي بعض الحكايات عن والديها إلى إيما ؛ خاصة وأن السيدة جودار لم تحكِ لها الكثير . وقد تأكدت إيما ، أن من بين أقارب هارييت من عائلة مارتن ، يوجد شاب له اهتمامات عاطفية بهارييت .. وعندما توجه إيما بعض الأسئلة حول شخصية مارتن ، تحاول هارييت التقليل من شأنه ، كأن تقول مثلاً أنه غير متعلم وليس وسيمًا وصغير جدّا على تحمل مسئولية الزواج . وبعد أن التقت إيما بالسيد مارتن ، لفترة قصيرة ، أكدت لها هارييت أنه بسيط وريفي ساذج وجلف . وطلبت منها

مقارنته برجال أمثال السيد ويستون والسيد التون ، مما جعل إيما تقول: إن السيد التون هو أكثر رجل يناسب هارييت ؛ خاصة أنه ليس لديه عائلة تسأل وتتحرى عن ميلاد هارييت المشكوك فيه !!

5- يتحدث السيد نايتلي مع السيدة ويستون حول عدم موافقته أو ترحيبه بصداقة إيما وهارييت سميث .. ولكن السيدة ويستون لا توافقه لأنها ترى أنها صداقة طيبة ومناسبة جدًا ؛ خاصة لمن هن في مثل مستواهن التعليمي ؛ فيُدهش السيد نايتلي لأن هارييت سميث لا تملك من العلم ما يحفز عقل وفكر إيما ، فربما تكتفي فقط بتملقها ومداهنتها طوال الوقت . ويقول للسيدة ويستون إن عملها كمربية أفاد كثيرًا ومهد أمامها الطريق لتكون زوجة صالحة وناجحة .. كما أن هذه الوظيفة دربتها جيدًا على كبح جماح مشاعرها ورغباتها والسيطرة عليها. ويتدرج السيد نايتلي في الحديث إلى أن يبدأ في مدح جمال إيما ، وهنا تعرف السيدة ويستون كيف تُسكته !!

6- تتكلم إيما مع السيد التون حول الآنسة هارييت ، ورغم أن الرجل امتدح الفتاة إلا أنه كان ميالاً تمامًا للآنسة إيما ؛ فحاولت أن تقنعه بجمال صورة هارييت التي رسمتها لها .. إلا أن السيد التون قال صراحة إنه يود الاحتفاظ بصورة إيما وود هاوس وليس صورة هارييت سميث ، وعندما انتهت إيما من رسم صورة هارييت ، أحس السيد ويستون والسيد نايتلي أن إيما تحاول تجميل الصورة ومظهرها ؛ فقد جعلت ملامحها أجمل من الحقيقة، وقوامها أطول من الواقع !! في النهاية أخذ السيد التون صورة هارييت ليذهب بها إلى لندن ، ليصنع لها إطارًا .

7- يرسل السيد مارتن رسالة إلى هارييت سميث يعرض عليها رغبته في الزواج منها ، ورغم اعتراف إيما أن الخطاب كان رقيقًا جدًا عند تعرضه لمسألة الزواج هذه ، وربما أكثر مما توقعت ، إلا أنها أساءت إليه عند حديثها مع هارييت ، (فهي تظن أن إحدى شقيقاته كتبت هذه الرسالة نيابة عنه) ، وتحذر إيما هارييت من قبول هذا العرض ، وقالت لها إن المرأة يجب أن ترفض عندما يساورها أدني شك . تشعر هارييت بالأسي لأنها ستخيب آمال السيد مارتن ، وترد عليها إيما إن الأفضل لها التفكير في السيد التون ، الذي سيسافر خصيصًا إلى لندن ليضع صورتها في إطار !!

8- قضت هارييت ليلتها تلك في هارتفيلد ، حيث أملاك عائلة وود هاوس ، كما اعتادت .. وقد تحدث السيد نايتلي مع إيما وعبر لها عن احترامه وتقديره لها لرعايتها لهارييت ، وقدرتها على إبرائها من طباع بنات المدارس ، وإن كان يعتقد أن السيد مارتن يعتزم التقدم لخطبة هارييت ، فأجابته بسرعة أن هارييت قد صدته فعلاً ورفضته ؛ فيغضب السيد نايتلي لاعتقاده مَنْ تكون هارييت هذه لترفض رجلاً مثل مارتن الذي يتفوق عليها ويعلوها شأنًا ؛ إذ يكفي أنها فتاة بلا إحساس ومن أصول مشكوك فيها .. فترد عليه إيما إن هارييت فتاة تعلو أي شخص شأنًا كما أنها ولا شك من أصول نبيلة ، وعلي أي حال قرر السيد نايتلي التخلص من التفكير في مسألة هارييت والتون .

9- يقوم التون بتسليم إيما قصيدة تبدو أن هارييت هي المعنية بها ؛ فهي قصيدة عاطفية إن تم فك شفرتها ، فسوف يتضح أنها قصيدة حب إلى هارييت ، وهذا يعزز ويدعم نوايا التون في ذهن إيما ، التي تواصل

لعب دور المستشار العاطفي لهارييت ، ولا زالت تؤكد لها ألا تنخدع في مشاعرها المتباعدة تجاه التون . وذات يوم أخبر السيد وود هاوس إيما وهارييت بمقدم إيزابيلا شقيقة إيما وأسرتها لزيارة هارتفيلد في القريب العاجل .

10- تقوم إيما بزيارة خير وشفقة لعائلة فقيرة ، تقيم خارج هاي بيري، وتتحدث إيما إلى هارييت عن مسألة زواجها هي شخصيًا .. إن إيما لا ترغب في الزواج؛ لأن عليها البحث عن شخص يتفوق عليها هي أولاً ، وحتي إن لم تتزوج قط فإنها لن تكون مثيرة للشفقة مثل الآنسة بيتس ؛ فالعجز المالي والفقر هو الذي يجعل من العزوبة أو العنوسة مسألة مزرية ، فربما تبقي إيما عزباء ولكن ثرية . وتذكر هارييت جين فير فاكس ابنة خال الآنسة نيسي، لكن إيما لا تحبها لأنها إنسانة تحب أن يمتدحها الناس دائمًا .. على أي حال ما زالت إيما تسعي جاهدة إلى نسج خيوط قصة حب بين هارييت والسيد التون !

11- تقوم إيزابيلا وزوجها جون نايتلي بزيارة أبيها وشقيقتها في هارتفيلد . ويثرثرون حول عدم قيام فرانك تشيرشيل بزيارة آل ويستون منذ زواجهما .. وأثناء مناقشة مثل هذه الأمور يقوم السيد جون نايتلي بتذكير إيما أنها ليست زوجة بعد ، وأن هناك قلة ممن يعتبرون عائلة تشيرشيل عائلة رفيعة الشأن . تمنت إيما معارضة جون لاعتقادها أن ملاحظات جون قد تنعكس بصورة سيئة على السيد ويستون ، فآثرت الحفاظ على الهدوء والسلام .

12- تصمم إيما على ضرورة دعوة السيد جورج نايتلي ليتناول العشاء أثناء زيارة شقيقه كوسيلة للتصالح ؛ إذ إنها ترفض تقديم أي تنازلات ،

ولكنها وسيلة لاستعادة أواصر الصداقة . وتذكر إيزابيلا اسم جين فيرفاكس أثناء الحديث ، وتري أنها لا تقل عن إيما في اعتدادها بنفسها ، وأنها أنسب صديقة لإيما ، أكثر من هارييت سميث .

13- يوجه السيد ويستون الدعوة إلى بعض عائلات هاي بيري لتناول العشاء مع أسرته في راندال في ليلة الكريسماس .. ورغم توجيه الدعوة إلى هارييت سميث لحضور هذا العشاء إلا أنها لم تستطع الحضور لإصابتها بنزلة برد شديدة . ورغم اعتراض إيما، إلا أن السيد التون قد قرر الحضور ، ويلمِّح السيد جون نايتلي لإيما كيف أن السيد التون يبدو مفتونًا بها . كما حضر السيد وود هاوس هذا الحفل رغم سوء الأحوال الجوية ، وقد بدا عليه القلق وعدم الارتياح ، ولم تكن إيما سعيدة لأن التون لم يبد أي ضيق بسبب غياب هارييت .

14- أثناء الحفل ، لم يخف السيد التون محاولاته المستمرة للتواجد إلى جوار إيما رغم محاولاتها دعم علاقته بهارييت سميث .. لقد كانت إيما تعتقد أن أنسب إنسان يمكن أن تتزوجه هو فرانك تشيرشيل ؛ لتوافقه معها في السن والشخصية والظروف .

15- أخيرًا سأل التون إيما عن حقيقة مرض هارييت .. وكانت إيما تشعر في الحقيقة أنه يخشى عليها هي من المرض ، وفي نهاية زيارة عائلة ويستون ، تغير مزاج السيد وود هاوس وصار أكثر عصبية وحدة ؛ فقد بدأ الثلج يتساقط وخشي السيد وود هاوس ألا يستطيع مغادرة راندال . وقد خفت حدة الثلج وتم إحضار بعض العربات الخاصة لنقل الزوار إلى بيوتهم .. وتصادف أن استقلت إيما العربة نفسها التي استقلها التون ، وحين جلست بجانبه ، اعترف بحبه لها . وعندما

تذكر له سيرة هارييت سميث ينفر من سيرتها لأنها وضيعة المستوى ، ويصرح أنه حين كان يلتقي بها .. كان يفعل ذلك لوجود إيما معها فقط ، ويؤكد أن إيما هي التي كانت تبث فيه الشجاعة !

16- في اليوم التالي ، شعرت إيما أن السيد التون قد خدعها ولم يُظهر لها الود الكافي .. وأيقنت أن ما وصلت إليه الأمور هو خطأها وحدها ، خاصة أنها حاولت لعب دور الوسيط بين التون وهارييت .. ورغم سوء الأحوال الجوية ، قام السيد نايتلي بزيارة هارتفيلد صباح احتفالات الكريسماس .

17- غادر السيد جون نايتلي وزوجته إيزابيلا مدينة هاي بيري ، كما غادرها أيضًا السيد التون إلى مدينة باث ؛ مما جعل إيما تشعر بالارتياح .. لقد عقدت إيما العزم على إطلاع هارييت على كل ما حدث مع التون ، وعلي تصرفاته أثناء الزيارة . وقد تحملت هارييت هذه الأخبار بقوة ولم تُحمّل أي شخص المسئولية عما حدث ، وعندئذٍ تأكدت إيما أن مشاعر هارييت نبيلة ورفيعة ؛ لأنها كانت صادقة في مشاعرها وواضحة مع نفسها .. بل وتأكدت أيضًا أن هارييت كانت تحب السيد التون أكثر مما كانت إيما تعتقد .

18- خاب أمل عائلة ويستون لعدم حضور فرانك تشيرشيل لزيارتهم، وطلب التأجيل مرة أخرى .. وقد اعتقد السيد نايتلي أن آل تشيرشيل هم الملامون لتخلف فرانك عن الحضور ، ربما لرغبتهم الإبقاء عليه بعيدًا ، مع أن فرانك إنسان ناضج وله إرادة مستقلة تجعله يفعل ويختار ما يشاء . ويشعر السيد نايتلي أيضًا أن فرانك تشيرشيل يهتم كثيرًا بتمضية أوقات الفراغ والأنشطة . وتعارض إيما آراء السيد

نايتلي لأنها ترى أن معارضة آل تشيرشيل في رغباتهم، مسألة بعيدة عن الواقع تمامًا .. إن إيما لا تخفي دفاعها عن فرانك في أي مناسبة ، ولكن السيد نايتلي يصرح لها أن فرانك تشيرشيل شخص لا يطاق .

19- تقوم إيما وهارييت بزيارة السيدة بيتس والآنسة بيتس ، رغم بساطة حالهم في المجتمع . فحين تتحدث الآنسة بيتس تتحدث بلا توقف وبلا هدف ، ولكن حين تتحدث إيما فهي تتحدث بأسلوب رفيع وبوعي ، إذ تتعمد السؤال عن أحوال الآنسة جين فيرفاكس حين تذكرها الآنسة بيتس والتي أعلنت ، في غمار ثرثرتها ، أن الآنسة فيرفاكس ستقوم بزيارتهم بعد أسبوع وستحضر ربما بصحبة آل كامبل الذين يقومون برعايتها . وقد علمت إيما في هذه الزيارة أن الآنسة فيرفاكس ربما على علاقة بالسيد ديكسون .

20- جين فيرفاكس ، حفيدة السيدة بيتس ، والتي ماتت أمها وهي طفلة صغيرة ، وقد تولت عائلة كامبل رعايتها وتربيتها ؛ لأن الكولونيل كامبل كان قد خدم في الجيش مع الراحل والد جين .. وقد تلقت جين تعليمًا رفيع المستوى حتى أصبحت رائعة الجمال والبراعة . شعرت إيما بالأسف لزيارة جين فيرفاكس ، رغم أنها لم تكره أحدًا من قبل . وعندما قامت جين بزيارتها كانت إيما تتعامل معها بأدب واحترام رغم غيرتها منها ، وقد استطاعت الحصول على بعض المعلومات عن فرانك تشيرشيل من جين ، التي التقت به قبل حضورها .

21- امتدح السيد نايتلي أسلوب إيما في التعامل مع جين أثناء زيارتها؛ خاصة أثناء تناول العشاء معها . وقد أخبر السيد نايتلي إيما أن لديه

أخبارًا تهمها . لكن الآنسة بيتس وجين فرفاكس يقاطعانها أثناء الحديث ، فتشكر فيرفاكس إيما على حسن الاستقبال وجودة العشاء ، وتخبرها كذلك عن عزم السيد التون الزواج من الآنسة هوكنز في مدينة باث ، فتزعم إيما أن علاقة التون والآنسة هوكنز لن يكتب لها الاستمرار . ورغم سقوط المطر الشديد ، إلا أن هارييت وصلت إلى هايبري ، وتعلن أنها قد رأت روبرت مارتن وشقيقته إليزابيث ، أثناء تسوقهم من محلات فورد . وكانا يتعاملان معها بتأدب شديد الأمر الذي جعلها تشعر بالحرج .. شعرت إيما بارتياح ؛ لأن الفرصة أصبحت مواتية للتواصل بين هارييت وآل مارتن .

22- لم يمض أكثر من أسبوع واحد على تداول اسم الآنسة أوجاستا هوكنز في مجتمع هاي بيري ، على أساس أنها فتاة جميلة ورشيقة وأنيقة وودودة ، رغم أن إيما كانت ترى أنها لا تتمتع بروابط عائلية متينة . عاد السيد التون إلى هاي بيري بروح معنوية عالية ومختلفة ؛ فقد كان عليه أن يتزوج بسرعة حيث إن الإعداد لحفل الزواج لم يكن يتطلب كثيرًا من التدبير . لقد شعرت هارييت بالاستياء من عودة التون برغم ارتباطها الآن بإليزابيث مارتن ، وتعتقد إيما أن زيارات هارييت لعائلة مارتن تتم في إطار الاعتبارات الاجتماعية .

23- تعد هارييت تقريرًا مفصلاً عن زيارتها لعائلة مارتن .. ولكي لا تنزعها بعيدًا عن مشاغلها بعائلة مارتن وهارييت والتون ، فإنها تقوم بزيارة آل ويستون . لكن وبعد زمن، يقوم السيد فرانك تشيرشيل بزيارته المرتقبة إلى هاي بيري . إن فرانك شاب وسيم وجذاب ومتحدث لبق، ولذلك أحبته إيما على الفور !! وقد رحبت إيما وآل ويستون والسيد

وود هاوس بفرانك تشيرشيل ترحيبًا دافئًا ؛ الأمر الذي أسعد إيما ببداية هذا التعارف .

24- قام فرانك تشيرشيل والسيدة ويستون بزيارة إيما التي قررت ، في ذلك الحين، أن فرانك ليس بالشخص الذي يرفض زيارة بيت أبيه ، وهذا يؤكد أن السيد نايتلي كان مخطئًا . وليؤكد هذا الفهم لإيما ، طلب فرانك زيارة بيت جده. وعندما قام بزيارة خان التاج ودخل قاعة الرقص ، أوعز إليها أن بإمكانها استغلال مصادرها المالية في إقامة حفلات رقص في ذاك المكان . ولدهشتها الشديدة أن فرانك قد استخف تمامًا بالآنسة جين فرفاكس واستهان بها في حديثه مع إيما ؛ الأمر الذي جعلها تدافع عنها . وأثناء تجوالهما في محلات فورد لشراء قفاز لفرانك ، أكد لها أن جين خُلقت لتكون مدرسة ، ويذكر لها اسم ديكسون أيضًا .. أحست إيما أن فرانك إنسان معتدل ودافئ المشاعر ، أكثر مما توقعت وليس طفلاً ثريًا مدللاً ، كما كان يقول البعض !

25- تهتز صورة فرانك في ذهن إيما عندما علمت أنه ذهب إلى لندن ليحلق شعره ، وحدث أن قامت عائلة كول - وهي عائلة تجار بسطاء - بدعوة كبار عائلات هاى بيري للعشاء معهم . ورغم اعتقاد إيما أن قبول هذه الدعوة يقلل من شأنها وسط المجتمع ؛ فقد أحست أنها يجب أن تقبل ما تحدده لنفسها ، وليس ما يفرضه عليها المجتمع ، ولذلك قبلت تلك الدعوة .

26- عاد فرانك من زيارته إلى لندن ، دون أدنى شعور بالخزي مما فعل . وفي حفل العشاء حكت السيدة كول كيف أن الآنسة جين فيرفاكس قد تلقت بيانو هدية من مصدر غير معلوم .. لقد أسعد هذا الخبر السيد

فرانك تشيرشيل ، فتخبره إيما أنها ربما هدية من السيدة ديكسون . فيؤكد لها فرانك احتمال تورط السيد ديكسون شخصيًا في هذه المسألة ، ويذكرها أن السيد ديكسون يحب جين كثيرًا ، ولعل هذا كان سبب زيارتها إلى هاى بيري بدلاً من مرافقة آل كامبل في زيارتهم إلى أيرلندا . ويروي لها كيف أنقذها السيد ديكسون من موت محقق عندما سقطت في الماء أثناء إحدى الحفلات البحرية ، وأن السيد نايتلي ربما هو الذي جهز العربة التي أقلت الآنسة جين فيرفاكس والسيدة بيتس إلى الحفل. تضايقت إيما كثيرًا مما سمعت ؛ لأن هذا قد أوضح أن السيد نايتلي قد عقد العزم على الزواج من الآنسة جين فيرفاكس، وعلى الفور تحدثت إيما إلى السيد نايتلي لتبدد مخاوفها وشكوكها ، وقد استهزأ نايتلي بفرانك تشيرشيل لقيامه بالغناء في حفل عائلة كول .

27- تقوم هارييت سميث بزيارة إيما ، وتنقل إليها مخاوفها من تورط روبرت مارتن في علاقة مع الآنسة آن كوكس ! بعد ذلك اصطحبت إيما صديقتها هارييت للتسوق معًا من محلات فورد .. وهناك رأت إيما السيدة ويستون في صحبة فرانك لزيارة الآنسة بيتس ، وأثناء مواصلة إيما وهارييت التسوق دعتهما الآنسة بيتي لسماع الآنسة جين فيرفاكس ، وهي تعزف على البيانو الجديد !

28- في بيت آل بيتس ، استمعت إيما لعزف جين فيرفاكس . قام السيد نايتلي بزيارة بيتي آل بيتس أثناء تواجد إيما وفرانك ، ولكنه حين وجد هذا الحشد الكبير ، قرر أن يرجئ الزيارة لوقت لاحق ، فتشكره الآنسة بيتي على هدية التفاح الفاخر الذي أرسله إليها .



29- ونظرًا لاستمتاعه بالرقص والغناء في بيت آل كول ، وعد فرانك بزيارة ثانية إلى هاى بيري .. ونظرًا لضيق مساحة قاعة الرقص في خان التاج ؛ فقد قرر عمل الحفل القادم في قاعة راندال .

30- وصل خطاب من السيد تشيرشيل ، يطلب عودة ابن أخيه بصفة عاجلة ، لاعتلال صحة السيدة تشرشيل . وطبعًا أفسد هذا الخطاب كل الاستعدادات التي كانت تتم للحفل الراقص ، وعندما رحل كانت إيما على يقين أنه - ربما - اعترف لها بحبه !! فتبدأ في إقناع نفسها أنها تعيش قصة حب !!

31- لم يساور إيما أي شك أنها تعيش قصة حب !! ولكنها تعجبت ، فإلى أي مدى تحب هي فرانك تشيرشيل ؟! وما مقدار هذا الحب !! لذلك لم تشعر بالسعادة بعد غياب فرانك ، ولكنها تعود إلى ذلك العهد الذي التزمت فيه بأنها لن تتزوج أبدًا ، ولن تتخلي عن أبيها أبدًا أو تهجره ! وهنا بدأت إيما تشعر أن فرانك قد يكون الشخص المناسب لهارييت .. لقد قامت إيما بتوبيخ هارييت لانشغالها بألتون ، مؤكدة أنها المسئولة عن هذا الخطأ ، طلبت منه التقليل من ذكر اسم التون - إن كانت تحبها - فتعتذر هارييت فعلاً عن جحودها .

32- التقت إيما لأول مرة بزوجة السيد التون الجديدة في الكنيسة ، ولكنها لم تستطع الاقتراب من عائلة التون ؛ لأنها لم تستطع نسيان ماضيه ومواقفه الأخيرة معها ومع هارييت ! لكنها طبعًا أخذت تتفحص الزوجة الجديدة ، ولم تجدها كما وصفوها .. فلا هي رشيقة ولا هي متألقة بل كانت تتبسط أكثر من اللازم مع العامة والغرباء . ولا زالت

إيما على اعتقادها الراسخ أن هارييت كانت الأنسب لالتون أكثر من أوجستا هوكنز لأن هارييت لها جذور قوية مع المجتمع أكثر من أوجستا . وعندما التقت بها وجدت نفسها تعقد مقارنة بين هارتفيلد ومابل جروف حيث يعيش شقيقه .

33- قررت السيدة التون تجنب إيما لأنها لم تشعر بحماسة تجاهها .. وبالتالي تغير سلوك التون تجاه هارييت ، وعلي العكس من ذلك زاد تقربها من جين فيرفاكس .. وقد أشفقت عليها للوهلة الأولى، كما رفضت جين دعوة من عائلة كامبل ، بينما ترى إيما أن لدي جين دوافع أخرى خفية. من ناحية أخرى ، أعلنت السيدة ويستون أن السيد نايتلي استغرق وقتًا طويلاً ؛ ليقنع نفسه أنه لا يحب الآنسة جين فيرفاكس وأن المسألة لابد أن تنتهي بالزواج.

34- قررت إيما إقامة حفل على شرف عائلة التون في هارت فيلد لتخفي احتقارها للسيدة التون ، وأنه سوف يحضر هذا الحفل مع عائلة التون كل من السيد نايتلي وآل ويستون وهارييت ، ولكن هارييت تعتذر عن عدم الحضور ، فتستبدلها إيما بالآنسة جين فيرفاكس ! وتبدأ الثرثرة في الحفل وتتحدث الآنسة جين عن تفاصيل زيارتها الأخيرة إلى مكتب البريد وحكاية خط يدها ، كما يطلق السيد نايتلي رأيًا آخر في السيد فرانك تشيرشيل ؛ حين يقول إن خط يده مثل خط النساء في الكتابة . وهنا تعلن إيما عن دهشتها لأنها لا تعلم أي شيء عما استلمته الآنسة جين من خطابات ! هل هي خطابات مرسلة من السيد ديكسون أو من عائلة كامبل أو من آخرين ؟!

35- في نهاية الحفل ، أعلنت جين أنه من المحتم عليها أن تصبح مربية أطفال . وتقارن بين هذه المهنة وتجارة العبيد .. بينما يصل السيد ويستون إلى الحفل بعد يوم عمل شاق في لندن ، ويسلم السيدة ويستون خطابًا من فرانك تشيرشيل يخبرها فيه أنه سيعود قريبًا إلى هارتفيلد ، خاصة بعد أن تحسنت صحة عمته!

36- في أثناء ذلك يدور حوار بين السيد ويستون مع السيدة التون حول فرانك تشرشيل وعمته . ويحكي لها بصفتها غريبة عنهم كثيرًا عن آل فرانك تشيرشيل؛ ويصفهم بأنهم أناس متفاخرون . أما تباهي أو تفاخر فرانك فلا يمكن إلصاق صفة الإيذاء أو الغرور به ، ويغادر السيد جون نايتلي وقد ترك ولديْه هنري وجون تحت رعاية إيما ، وإن كان يخشى أن يشكلا عبئًا عليها ، خاصة وقد ازدادت أعباؤها الاجتماعية في الشهور الستة الأخيرة، حيث ازدادت زياراتها لكثير من البيوت خاصة ذوي الأصول الضعيفة ؛ فاقترح السيد نايتلي أن يبقى الولدان معه هو. ولكن إيما ترد بلباقة أن السيد نايتلي لديه مشاغل وارتباطات اجتماعية أكثر منها ، وهي شاهد على ذلك لحضورها معه بعض هذه الاجتماعات ، ولكن إيما عادة لا تغيب عن البلدة .

37- يمكن القول إن مشاعر إيما تجاه فرانك قد خمدت رغم أن القلق قد استبد بها خشية أن يكون هو قد وقع في حبها . وعندما عاود فرانك زيارته للمدينة ، لم يقم بزيارتها إلا مرة واحدة على مدى عشرة أيام ، وقد استأجر مع عمه وعمته بيتًا على بعد تسعة أميال من بيت السيد ويستون ، ثم سرعان ما بدأ الاستعداد لحفل راقص في خان التاج .

38- بدأ الحفل في خان التاج وتوافد الناس ، ولكن الملاحظ أن فرانك تصرف مع إيما بأسلوب سخيف ؛ فقد طلبها للرقص بعد أن رقص السيد ويستون مع السيدة التون ، ورغم إحساس إيما أن الدور كان لها أولاً . وقد أرضي هذا الموقف غرور السيدة التون تمامًا ، وتمنت إيما أن تكون قد أحبت فرانك أكثر مما هي عليه آنذاك . ثم حين عرضت السيدة ويستون على السيد التون أن يرقص مع هارييت ، رفض الرجل .. ولإنقاذ كرامة هارييت طلبها السيد نايتلي للرقص معه ، وقد اندهشت هارييت لذلك .

وبعد انتهاء الحفل ، أخبر السيد نايتلي إيما ، أن أسلوب تصرف أسرة التون في هذه الليلة ، لم يكن القصد منه إحراج هارييت فقط ، بل إيما أيضًا . فهم لا يريدون نسيان أنها كانت تسعي لتزويج هارييت من التون ، وقد سخر السيد نايتلي أيضًا من المقولة الشائعة بأن علاقة نايتلي وإيما هي علاقة أخ بأخته !

39- وصل فرانك تشيرشيل وهارييت معًا إلى هارتفيلد في اليوم التالي لحفل الرقص .. وفي الليلة السابقة ، وعندما كانت هارييت في طريقها إلى بيتها ، قامت مجموعة من الغجر بمضايقة هارييت ومن معها ثم طاردتهم بعد ذلك . وكاد بعض منهم يقوم بخطف واغتصاب هارييت ، لولا أن القدر قد أرسل إليها فرانك تشيرشيل ؛ حين كان في طريقه مصادفة لإعادة مقص للآنسة بيتس ، فأنقذ هارييت من هذه الحادثة . ترسخ الاعتقاد لدى إيما، أن هارييت وفرانك تشيرشيل يمكن أن يكوّنا ثنائيًا ناجحًا .. وسرعان ما تناقلت مدينة هاى بيري

الفعل البطولي الذي قام به فرانك تشيرشيل ، وقررت إيما التوقف عن التوسط بين الطرفين!

40- قامت هارييت بزيارة إيما عدة مرات بعد هذه الواقعة لتعترف لها ببعض الأمور.. كانت لا تزال تحتفظ ببعض الأدوات أو الأغراض التي لها علاقة بألتون، مثل صندوق صغير به قطعة بلاستر ، كان التون قد استخدمها في تضميد جرح له . واعترفت أنها ما عادت تبالي أبدًا بألتون ، وأنها أيضًا قررت عدم الزواج لأن الشخص الذي تتمنى الزواج منه يفوقها في المنزلة الاجتماعية، ولكن إيما يضيء لها طريق الأمل في إمكانية الزواج بهذا الإنسان ، الذي حرصت على عدم ذكر اسمه !

41- ازدادت كراهية السيد نايتلي لفرانك تشيرشيل .. فقد اتهمه باللعب على الوجهين عندما يتعامل مع إيما ، ولكن حبه لإيما مسألة لا تقبل الجدل . كان السيد نايتلي قد شكك في مزاعمه الارتباط بالآنسة فيرفاكس بدلاً من إيما ، وقد أصبحت أسماء مثل إيما وفرانك وهارييت وجين كأنها أسماء في لعبة الكلمات المتقاطعة ، يصعب على الإنسان ترتيبها ؛ خاصة أنه إذا ذكر فرانك اسم ديكسون .. فإن جين كانت تتضايق كثيرًا . ولا يتردد السيد نايتلي في نقل شكوكه إلى إيما حول فرانك وجين ، ولكن إيما كانت متأكدة من عدم وجود رابطة عاطفية بين جين وفرانك .. على أي حال كان السيد نايتلي متضايقًا جدًا من الوضع العام !

42- خططت السيدة التون للقيام برحلة جماعية ، واقترح السيد نايتلي عليها الذهاب إلى دونويل آبي واقترحت أن تتولى هي توجيه

الدعوات ، رغم أن الرحلة ستكون في ممتلكاته .. ولكنه كان من الشجاعة التي جعلته يقول لها إنه توجد امرأة واحدة من حقها توجيه الدعوات لأي إنسان ؛ خاصة إلى منطقة دونويل آبي ، وهي السيدة نايتلي .

وأثناء الرحلة لاحظت إيما تواجد هارييت مع السيد نايتلي ؛ فاعتبرت هذا أمرًا غريبًا يدعو للدهشة . كما لاحظت أيضًا أن جين فير فاكس غادرت الرحلة مبكرًا ، بينما وصل فرانك متأخرًا، ويبدو أن السيدة تشيرشيل هي التي كانت وراء هذا التأخير ، بالإضافة إلى أنه كان في حالة مزاجية سيئة .. وأثناء حديثه مع إيما صرح لها فرانك، بأنه ليس ذلك الشخص الثري ، وأنــــه يفكر جديًا في السفر بعــيدًا عن إنجلترا . وقد رفض دعوة إيما للذهاب إلى حفل بوكس هيل اليوم التالي .. لكنه سرعان ما استجاب لها.

43- لاحظ الجميع في حفل بوكس هيل أن فرانك تشيرشيل لازال في حالة مزاجية سيئة ، ولكن مزاجه كان يتغير ويتحسن عندما يتحدث إلى إيما أو يلعب معها ! ويعترف أنها دائمًا معه ، كما أنها دائمًا صاحبة نفوذ عليه وتأثير فيه ! واقترح فرانك على المشتركين في الرحلة القيام بلعبة بسيطة ؛ فعلى كل إنسان أن يخبر إيما بشيء واحد بالغ الذكاء ، أو شيئين متوسطي الذكاء ، أو ثلاثة أشياء سيئة .

وعندما بدأت الآنسة بيتس تثرثر معها بلا توقف ، اضطرت إيما أن توقفها بشدة وتبلغها أن المسموح لها ذكر ثلاثة أشياء سيئة فقط . واشترك السيد ويستون في اللعبة .. وتناقشت إيما وجين وفرانك حول الزواج ؛ فقالت جين : إن الزواج السريع يمكن أن يتحول إلى

عبودية .. بينما طلب فرانك من إيما أن تختار زوجة له على مزاجها الخاص ؛ فتعيده إيما إلى فكرة فرانك وهارييت. فيما بعد استهجن السيد نايتلي معاملة إيما للآنسة بيتس بقسوة وجفاء ، وقال لها إن الآنسة بيتس تستحق منها الشفقة وليس الاحتقار .

44- تذهب إيما إلى بيت الآنسة بيتس لتعتذر لها عما بدر منها في حفل بوكس هيل ، ولكنها لم تجدها في المنزل ، وتخبرها السيدة بيتس أن جين ربما تكون مريضة .. عادت الآنسة بيتس وأخبرتها أن جين كتبت خطابات إلى الكولونيل كمبل والسيد ديكسون وكانت تبكي بحرقة ، لأنها في طريقها للعمل كمربية أطفال عند السيدة سمول ريدج في منطقة مابل جروف ، وقد شكرت السيدة التون . وأضافت أنها ستحصل على راتب مرتفع، وهذا الكلام كله على مسئولية الآنسة بيتس ، وأعلنت أيضًا أن فرانك تشيرشيل قد رحل فجأة بناء على استدعاء عاجل من أسرة تشيرشيل .

45- عندما عادت إيما إلى بيتها اكتشفت وصول السيد نايتلي وهارييت الذى أخبر إيما أنه سيذهب إلى لندن لزيارة أخيه جون وإيزابيلا ، وإنه كان مسرورًا جدًا لقيام إيما بزيارة الآنسة بيتس ، ثم أمسك بيدها وكان على وشك أن يقبلها ، لكنه ترك يدها فجأة!

في اليوم التالي وصلت أخبار مفادها أن السيدة تشيرشيل قد ماتت ! والعجيب أنه بعد العداء والكراهية لهذه السيدة لمساوئها .. تحول الجميع إلى الحديث عن مآثرها ومحاسنها بعد وفاتها ، وتأكدت إيما ذاك اليوم أنه ما عادت هناك أي حواجز أو عوائق بين هارييت سميث وفرانك تشيرشيل .. كما علمت أن جين فيرفاكس أصبحت

مريضة ؛ ربما لإصابتها باكتئاب لأنها ستذهب للعمل في مابل جروف ولكنها عرفت فيما بعد أن جين قد أصابها المرض بعد تجولها بين المروج الخضراء .

46- استدعى السيد ويستون إيما على عجل ؛ لتلحق به في راندال لأن السيدة وستون لديها أخبارًا مهمة .. وعندما تصل إيما حسب دعوة السيد ويستون ، وجدت السيدة ويستون في حالة قلق وتوتر واضطراب !! لقد وصلت أنباء عن خطبة فرانك تشيرشيل والآنسة جين فيرفاكس ، بترتيب سري !! وصارحت إيما السيدة ويستون بأنها شعرت في مرحلة ما ، بالعاطفة تجذبها ناحية فرانك لكن توقف هذا الأمر من ناحيتها .. كما كان دائم التودد إليها والتقرب منها حتى في وجود جين فيرفاكس .. علمت أيضًا أن السيد تشيرشيل الأب ، منح ابنه فرانك الموافقة على الزواج من جين ، دون أدنى صعوبة .

47- تملك إيما شعور قوي أن التغيير السريع في الأحداث ربما يسبب كثيرًا من الضيق لهارييت ؛ خاصة أن تلك كانت المرة الثانية التي تسعى فيها إيما لإيجاد علاقة جادة في حياة هذه الفتاة الفقيرة والمسكينة .. شعرت إيما طبعًا بالغضب من فرانك على هذه الخدعة ، ولكن طبيعتها الطيبة والمتسامحة جعلتها تشعر بارتياح ؛ لأن هذه الخطبة ستحول دون انغماس الآنسة جين فيرفاكس في حياة غير محددة المعالم ، واعترفت صراحةً أنها كانت تكره جين بدافع الغيرة .

عندما التقت إيما وهارييت ، كان السيد ويستون قد سبقها ونقل تلك الأخبار إلى هارييت ، التي أنكرت وجود أي علاقة من أي نوع بينها و بين السيد فرانك تشيرشيل .. والحقيقة أن هارييت فعلاً لم

تذكر أبدًا اسم الشخص الذي ترتبط به عاطفيًا .. ربما كانت مشاعرها موجهة ناحية السيد نايتلي لأنها حين فاتحت إيما يومًا عن مشاعرها ، ألمحت لها أن الرجل الذي تريد إيما معرفته سبق وأنقذها . لذلك اعتقدت إيما أن هذا الشخص هو فرانك تشيرشيل ، عندما أنقذها من بين يدي الغجر .. لكن هارييت ربما كانت تعني السيد نايتلي بعبارة الذي أنقذها ، حين تصرف معها بنبل وشهامة ، ليلة الحفل الراقص ، عندما تجاهلها الناس واستخفوا بها . في النهاية ، استقر في وجدان إيما أنه لا توجد امرأة تقبل الزواج من السيد نايتلي إلا هي - إيما - شخصيًا !! اضطرت إيما مصارحة هارييت بأن أهدافها أكبر بكثير مما كان ينبغي أن تكون عليه .

48- فقدت إيما الأمل أن يحبها السيد نايتلي ، وحتي إذا كان يحبها .. فإن حالة أبيها التي تتطلب الرعاية القريبة والمستمرة ، قد تحول دون تحقيق الزواج !

فيما بعد أخبرت السيدة ويستون ، إيما ، أن الآنسة جين فيرفاكس متبرمة ومتضايقة من السرية التي تمت بها الخطوبة ، وكم كانت تتمني أن تتم بمزيد من الذوق واللياقة . شعرت إيما المسكينة أنها أصبحت كسيرة القلب ووحيدة ؛ خاصة أن السيدة ويستون سرعان ما تنشغل بطفلها ، كما أن زيارات فرانك تشيرشيل ستكون بالطبع محدودة .

49- يصحب السيد نايتلي هارييت لزيارة إيما ، ويتطرق حديثهما بالطبع إلى سيرة فرانك تشيرشيل وجين فرفاكس !! وقال السيد نايتلي إن جين فيرفاكس لن تكون سعيدة حين ترتبط بشخص غير محتمل مثل

فرانك تشيرشيل ، ولكنه يتمنى لو استطاعت تغيير طباعه إلى الأفضل . ويعترف نايتلي أنه يغار صراحة من فرانك لشيء واحد .. وقد خافت إيما أن يخص هارييت بكلامه هذا ، ولكن السيد نايتلي أوضح أنه يحسده فقط على حبه لإيما .. أصبح الاثنان على يقين أن كلاً منهما يحب شخصًا آخر !!

50- أصبح أمام إيما عائقان يحولان دون زواجها من السيد نايتلي : هارييت سميث، وأبوها!! كان من الصعب على إيما أن تتزوج نايتلي طالما أن أباها لا يزال على قيد الحياة ؛ لأن هذا العجوز لن يقتنع أساسًا بأي زواج لها ! وقد فكرت إيما كثيرًا في كيفية نقل هذا الموضوع إلى هارييت ، بل إنها فكرت في دعوتها للإقامة مع شقيقتها إيزابيلا في لندن ، حيث يمكن إلهاؤها .

كتب فرانك تشيرشيل خطابًا إلى السيدة ويستون . يعبر فيه عن ندمه الشديد لما قام به من خداع ، ويبرر أيضًا بعض تصرفاته، ويذكر في خطابه أيضًا أن إيما امرأة شابة لا مثيل لها ، كما أنها متكاملة في ذاتها ، وكم حاول أن يصارحها حول مسألة جين فيرفاكس ، ولكنه لم يستطع .

51- تناقش السيد نايتلي وإيما حول خطاب فرانك تشيرشيل ، وقد وصلا إلى النتيجة نفسها : أن فرانك لم يحسن التصرف ، ولكنه لديه مبرراته .. وفي النهاية لم يؤذ أحدًا . ثم تناقشا حول الاحتمالات والبدائل عن الاقتراب من مشكلة أبيها ؛ فمثلاً يمكنهما الانتقال للعيش في دونا ويل ، ولكن قد يسبب هذا بعض المتاعب للرجل العجوز .. ولكنهما

استقرا آخر الأمر على أن يحضر السيد نايتلي ليعيش في هارتفيلد بصفة نهائية .

52- أخيرًا تعرف هارييت موضوع إيما والسيد نايتلي وتتقبل الأمر جيدًا ، ثم تقوم إيما بزيارة عائلة بيتس للقاء جين فيرفاكس . وتلتقي هناك أيضًا بالسيدة التون التي تهنئها على الأخبار الطيبة التي انتشرت بخصوص السيد نايتلي وإيما . وعرفت إيما أيضًا في هذه الزيارة أن فرانك تشيرشيل وجين فيرفاكس سيتم زواجهما في القريب العاجل ، أو بالتحديد فور انتهاء فترة الحداد على وفاة السيد تشيرشيل .

53- أخيرًا أنجبت السيدة ويستون طفلة صغيرة وجميلة وأطلقت عليها اسم آنّا ، وتقرر الزواج من أحد أبناء إيزابيلا !! وهمست إيما للسيد نايتلي إنها لا تستطيع أن تناديه باسمه الأول ، ولكن تعده أن تناديه باسم جورج عقب زواجهما مباشرة ، ويعلنان بعد ذلك معًا نبأ خطبتهما .. طبعًا لم يتحمس السيد وود هاوس لفكرة زواج إيما من السيد نايتلي ؛ لأن هذا سيضطره لتغيير عاداته.. ولكن الزمن وحده كفيل بتهدئة نفسية السيد وود هاوس ، كما وعداه من قبل ؛ مما جعله أخيرًا يذعن لقبول زواج إيما والسيد نايتلي .

54- تم أيضًا زواج هارييت سميث وروبرت مارتن ! في البداية تضايقت إيما من هذه الأخبار .. ولكن السيد نايتلي أكد لها أن هذه الزيجة سيكتب لها النجاح والاستمرارية ، وعندما قام فرانك تشيرشيل وزوجته جين بزيارة هاى بيري ، أدركت إيما فعلاً أن اختيارها للسيد نايتلي كان اختيارًا بالغ التوفيق .

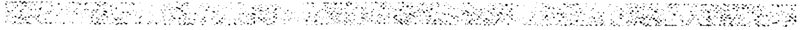
55- كتبت هارييت خطابًا إلى إيما يدور عن السيد مارتن ، واعترفت لها أنها كانت ساذجة حين ظنت يومًا أنها يمكنها الارتباط بالسيد نايتلي ! وأخيرًا عرفت هارييت من هما أبواها .. كان أبوها رجل أعمال ناجحًا ، يملك القدرة على تمكين هارييت من استكمال دراستها في مدرسة السيدة جوادر . ثم التقت إيما والسيد مارتن، فازدادت قناعتها أنه شخص مناسب تمامًا للزواج من هارييت ، وأنها ستكون سعيدة معه .

تم عقد قران هارييت إلى السيد روبرت مارتن . وبعد ترضية السيد وود هاوس ، تم عقد قران إيما وود هاوس إلى السيد جورج نايتلي !!

* * *

أوسكار وايلد

Oscar Wild



مسرحية

زوج مثالي

An Ideal Husband

الفصل الأول

تبدأ المسرحية بحفل أقامه السيد روبرت شيلترن ، في شقته الواقعة في ميدان جروزفينور في لندن ، ويمثل هذا الحفل الاتجاه الذي تعبر عنه المسرحية المتركز في الحوار السريع اللمّاح والذكي . ويتميز بيت شيلترن بالفخامة كما يتميز ضيوفه بالثياب الفاخرة ، وتقع معظم الأحداث في الغرفة المثمنة ؛ أي ذات الثمانية أضلاع ! وتقف السيدة شيلترن على السلم الفخم تستقبل ضيوفها وترحب بهم . وتظهر على الحائط الخلفي من موقعها لوحة الفنان العالمي بوتشر المعروفة باسم انتصار الحب ، ولا ننسي روعة ودقة بقية اللوحات المرسومة على النسيج ، في كل مكان في البيت . إن كل هذا الوصف للموقع الذي ستدور فيه أحداث المسرحية إنما يساعد في إضفاء جو الحب والعاطفة الذي يشيع في هذه المسرحية !!

يتوافد الضيوف وتبدأ الحوارات بينهم ؛ فالسيدة ماركمونت والسيدة باسيلدون تتناقشان حول حفلات هارتلوك السخيفة والمضجرة والتي تضم رجالاً يتميزون بالسخف . وتشير السيدة ماركمونت إلى أنها تذهب للحفلات عادة لتستفيد وتتعلم ! بينما تعترف السيدة باسيلدون أنها لا تطيق مسألة التعليم هذه ؛ فتضيف السيدة ماركمونت أن السيدة

شيلترن تتحمس جدًا لمسألة التعليم هذه، بل وتدعو النساء لتوسيع معارفهن وتعليمهن حتى يصبح للحياة غرض نبيل .

ويأخذ الفصل الأول في التقدم والنمو ، وتقترب الأحداث من ميلادها كلما وفد إلى المسرح أو إلى الحفل مزيد من الضيوف ، ودار مزيد من الحوارات ، ويدخل اللورد كافرشام ويسأل عن ابنه التافه عديم القيمة ؛ فتسأله السيدة مابل شيلترن عن سبب هجومه بهذا الشكل !! فيجيبها لورد كافرشام أن ابنه يحيا حياة تافهة ومتعطلة ؛ فتعلن أنها لا تتفق معه في هذا الرأي فينظر إليها اللورد ويهمس لها بأنها امرأة فاتنة ، وأنه أصبح يضيق ذرعًا بمجتمع لندن. فتخالفه الرأي ؛ حيث تري أن مجتمع لندن مجتمع لطيف ، ومكون من خليط من البلهاء المحبوبين والمجانين النبغاء مثل اللورد جورنج !!

تدخل بعد ذلك ليدي ماركباي والسيدة شيفيلي ، التي تتميز بالجمال والجاذبية ؛ مما يلفت أنظار الحضور ؛ فهي ترتدي ثوبًا أرجواني اللون وتضع روج أحمر قانيًا متوهجًا .. وقد صبغت شعرها باللون الأحمر ! وترحب الليدي ماركباي بالليدي شيلترن بحفـاوة بالغة . ولكن فجأة تقع عينا الليدي شيلترن على الليدي شيفيلي ، فتنحني لها برشاقة واهتمام ، وتصرح بأن سنوات الدراسة هي التي جمعت بينهما . أما الليدي شيفيلي ، والتي قضت سنوات طويلة في مدينة فيينا، فكانت سعيدة بهذا التعارف البارد !! وتصف سير روبرت شيلترن بأنه شخصية مشهورة جدًا في فيينا . أخذت الليدي شيلترن بهذه الملاحظة ، كانت - وقبل أن تتحرك إلى موقع آخر - تقول لليدي شيفيلي : إنها عادة لا تتفق والسير روبرت شيلترن في كثير من الأمور!! يقترب الفيكونت دي نانجاك ، وهو شاب محبب

لإنجلترا وللإنجليز ويشيع في المسرحية وفي المكان جوّا من المرح للألفاظ المغلوطة التي يستخدمها مع السيدتين ، في الوقت الذي تحركت فيه ليدي شيلترن إلى موقع آخر . فيتحدث إلى الليدي شيفيلي ويتمازح معها .

يصل السير روبرت شيلترن ، ويرحب بالليدي ماركباي . ويرحب أيضًا بالسيدة شيفيلي ويمتدحها ، فترد عليه بذكاء قائلة : إن أي تعارف يبدأ بالمدح ، ينتهي حتمًا إلى صداقة قوية !! وتخبره أنها تعرف زوجته منذ سنوات الدراسة ، ولكنها بعكس زوجته الليدي شيلترن لم تحظ بأية جوائز. فيسألها لورد شيلترن : هل هي متفائلة بطبعها أو متشائمة ؟ فتنفي عنها هذا أو ذاك .. وتقول له في دلال إن اهتمامها الوحيد هو السياسة !

بعد ذلك تطلب منه أن تقوم بجولة في منزله ، ثم أشارت إلى البارون أرنهايم ، وقالت إنها تعرفه وتعرف أنه صديق للسير شيلترن .. يتوقف السير شيلترن بعض الشيء عند هذا الاسم ، ثم ينتابه شيء من الحرج والألم.

يصل لورد جورنج فتشعر أنه بريطاني شديد التأنق والتألق .. اعتاد اللعب مع الحياة ذاتها ، وهو اجتماعي إلى أقصى درجة ، وبه عادة غريبة فهو يفرح حين يسيء الناس فهمه .. على أي حال يقوم السير شيلترن بتقديمه إلى الليدي شيفيلي ، فبدا أنه سبق لهما التعارف ! وبعد أن انتهى من الترحيب الذي يليق باللورد جورنج ، يتجه ناحية مابل شيلترن ، فيغازلها ثم يدخلان في لحظات مرح وضحك ومغازلة .

يقترب اللورد كافر شام من ابنه اللورد جورنج ، ويقول له إنه يريد أن يعرف ما سوف يفعله في هذا الحفل ، ويتهمه أنه يبدد حياته خاصة بعد أن

انضم أشخاص غير مرغوب فيهم - من وجهة نظره - إلى مجتمع لندن ! اقتربت السيدة باسلدون والسيدة ماركباى من لورد جورنج ، تعبران له عن تبرمهما من زوجيهما ، اللذين يسببان لهما الضيق لشدة انضباطهما . ويعلن لورد جورنج أنه يتعاطف معهما ، ثم يبدأون على الفور الثرثرة حول السيدة شيفيلي !!

بعد أن تحرك الضيوف لتناول العشاء ، تتحرك المسرحية أيضًا لتعود إلى السير شيلترن والسيدة شيفيلي ؛ حيث بقيا وحدهما في الغرفة ذات الثمانية أضلاع. فتصارحه شيفيلي أن بقاءها في إنجلترا متوقف عليه ! وتخبره عن شركة القناة الأرچينتينية ، والتي تصفها بأنها مشروع سياسي ومالي كبير .

كانت هناك جهود ومساعٍ للورد شيلترن في مشروع قناة السويس في مصر ، حيث عمل سكرتيرًا للورد رادلي ، ولكنه يعترف أنه لم يفكر بعمق بعد في هذا المشروع كاستثمار .. فقالت السيدة شيفيلي إنها تراه مشروعًا يستحق الدراسة والتأمل بينما يخشى لورد شيلترن أن يكون خدعة أو أكذوبة ؛ فتخبره أن البارون أرنهايم وحده الذي يمكن أن ينصح بالدخول في هذا المشروع أو بتجنبه ! ويعدها السيد شيلترن أنه سوف يقدم تقريرًا عن المشروع إلى المجلس في اليوم التالي، وإن كان يرى أن المشروع لن يحقق النجاح ! فتنصحه بعدم تقديم هذا التقرير لأنه ربما يسيء إليهما معًا .

وفي النهاية ، تعلن السيدة شيفيلي أنها تحتفظ بخطاب كان السير روبرت قد كتبه إلى البارون آرنهايم عندما كان يعمل سكرتيرًا للورد رادلي .. وقد جاء في الخطاب أن السيد روبرت قد باع أحد أسرار مجلس الوزراء ، حيث نصح البارون أن يبادر بشراء أسهم شركة قناة السويس ، قبل ثلاثة أيام من

إعلان الحكومة أنها ستقوم بشراء هذه الأسهم ، وتعلن له أنها تعلم جيدًا أن السيد روبرت شيلترن قد حقق ثروة هائلة من هذه اللعبة .. وتهدده السيدة شيفيلي صراحة أنها تنوي نشر هذا الخطاب في الصحف وفضح أمره ، إن لم يقف معها ويساندها في مشروع القناة الأرجنتينية علنًا .

إذًا ، أصبح السيد روبرت مهددًا بتدمير حياته الأسرية وحياته العملية وتلويث سمعته أيضًا .. ترفض السيدة شيفيلي أي أموال في مقابل تسليمه هذا الخطاب ، وترفض أيضًا أي محاولات للتفاوض . وأخيرًا يستسلم السير روبرت شالترن لرغباتها ، ويعدها بسحب التقرير في اليوم التالي ، ثم يغادر الغرفة .

عاد الضيوف من غرفة الطعام ووقفت السيدة شيفيلي تتحدث مع ليدي شيلترن ، وأوضحت لها أنها حظيت بدعم السير روبرت لمشروع القناة . لم تصدق الليدي شيلترن هذا الكلام وأكدت أن مبادئ زوجها تحول دون ذلك .. الحقيقة أن المرأة أصبحت في حيرة شديدة.. عاد السير روبرت بمرافقة السيدة شيفيلي إلى عربتها ، وكذلك وقف اللورد جورنج للتحاور مع مابل.. لقد عثرت مابل على بروش مختفٍ في الأريكة ، وعلي الفور يتعرف اللورد جورنج على هذا البروش ويشرح لها أنه أهداه إلى صديقة له منذ أعوام ، وطلب منها أن تخبره إذا سأل أي شخص عنه .. تعده مابل بذلك وتنصرف مع تمنياتها له بليلة طيبة .

بعد أن غادر كل الضيوف الحفل ، واجهت الليدي شيلترن السير روبرت بما قالته السيدة شيفيلي عن مشروع القناة ، وأوضحت له أنها كانت غير أمينة وشريرة وخبيثة أثناء سنوات الدراسة .. فرد عليها السير روبرت أنه من

الخطأ الحكم على الناس لماضيهم ، ولكن الليدي شيلترن دافعت عن رأيها بأن الماضي يحدد شخصية الإنسان . ويعترف السير روبرت أنه وافقها على دعم المشروع ، لكن الزوجة تشعر أن هناك شيئًا ما غامضًا ، وتشك في أن زوجها قد غيّر وجهة مبادئه ، وتسأله عن سبب تغييره لمبادئه بهذه الصورة المفاجئة ؛ فشرح لها أن الظروف هي التي تفرض عليه الاختيار ؛ فقالت له إن الظروف لا تغير المبادئ أبدًا .

وفي عاطفة جياشة تخبر الليدي شيلترن زوجها أنه لا ينبغي أبدًا أن يقوم بعمل الأفعال المشينة ، وتعلن له أنها أحبته لمثاليته ومبادئه والتمسك بالشرف ، وتتوسل إليه أن يظل كما هو الإنسان الشريف الذي تعرفه وتحبه وألا يقتل حبها له . ينكر السير روبرت وجود أي أسرار أو خفايا في هذا الأمر ؛ فتطلب منه الليدي شيلترن أن يكتب فورًا إلى السيدة شيفيلي ويشرح لها أنه لن يؤيدها في هذا المشروع بعد الآن . وتقف إلى جواره تمتدحه وتشجعه وهو يكتب الرسالة ، ويمسك بيدها ويعلنان حبهما لبعضهما، وينتهي المشهد باستدعاء السيد روبرت لكبير الخدم ويسلمه الرسالة .. وفي هذه اللحظة يقوم مشعل الشموع بإضاءة النور حول لوحة انتصار الحب .

الفصل الثاني

يبدأ الفصل الثاني ، وقد جلس السير روبرت واللورد جورنج في بيت شيلترن ، يتباحثان حول إمكانة إدارة الأزمة التي تفجرت فجأة في الليلة السابقة ! بدا على جورنج القلق الشديد على المصير الأخلاقي لصديقه ، وقد نصحه بضرورة مصارحة زوجته بماضيه ، وفي أقرب وقت ممكن . كان روبرت يخشى تمامًا ألا تصفح زوجته أبدًا عن تلوث سمعته خاصة ، وقد حجب عنها مثل هذه الأمور للحفاظ على صورته المثالية أمامها .. وقد تحدث اللورد جورنج بصوت رخيم وجاد وحاسم، بعكس ما كان عليه في الليلة السابقة ، وطلب من السير روبرت أن يكون صادقًا وأمينًا مع نفسه .. وقد وعد السير روبرت أن يتحدث إلى زوجته عن الآثار السلبية والخطيرة ، لعدم توقع أو قبول إلا كل ما هو كامل ومثالي !

يُطلع سير شيلترن صديقه لورد جورنج على كل تاريخ علاقته بالبارون أرنهايم ، والظروف التي كوّن فيها ثروته الكبيرة . ورغم اسمه واسم عائلته ووضعه الاجتماعي الرفيع ، إلا أنه كان فقيرًا عندما عمل تحت إشراف ورعاية البارون . وبصفته كان شابًا حساسًا وشديد التأثر ، فإنه حفظ كل نصائح البارون عن الثراء والثروة ، عن ظهر قلب !! وبالتالي انتهز أول فرصة سنحت له لتأمين استقراره المالي ، وقال في حماس إن قراره ببيع تلك الأسرار الحكومية إلى البارون لم يكن نتاج ضعف، بل قوة ، ويعترف أنه لم يشعر بأي ندم حيال ما فعل .. فيشعر اللورد جورنج بالأسى والأسف لموقف صديقه ، فيبادر سير شيلترن بالقول إنه دفع ثمن هذه الجريمة كما أنه ادخر أموالاً كثيرة لتوجيهها إلى أعمال الخير .



وبعد سماعه اعترافات صديقه سير شيلترن ، أعلن اللورد جورنج عن ضرورة القيام برد فعل سريع وحاسم للوقوف بقوة في مواجهة العاصفة القادمة ! كما أن عليه أن يحارب بضراوة ابتزاز المال الذي سوف تهدد به السيدة شيفيلي . يبدي شيلترن استعداده لمواجهة هذا العدوان عليه ، ولكنه يتراجع تمامًا أمام فكرة الاعتراف لزوجته ؛ لأنه على يقين أن مثل هذا الاعتراف يمكن أن يقتل حبها له ! وهنا يفجر سير شيلترن مفاجأة مذهلة ، فيعلن أنه كان مرتبطًا بخطوبة السيدة شيفيلي . وفي هذه اللحظة الحرجة هداه تفكيره أن يبادر بإرسال خطاب إلى فيينا ؛ ليتحرى عن كيف كانت شيفيلي تعيش هناك .. إنه يريد أن يبحث عن نقطة ضعف ، فيحفر لها حفرة، وبالتالي يمكن أن يضعف قوتها في هذه القضية . فاقتنع لورد جورنج إلى حد ما بهذه الخطة ، لكنه أكد لصديقه أن من الصعب أن تستسلم شخصية مثل شيفيلي ، بل المؤكد أنها ستستمر ، وستواصل حربها ضده بلا هوادة ، وستتمسك بهذه الفضيحة دون أي تراجع .

تصل الليدي شيلترن ، عائدة من اتحاد المرأة الليبرالي وتطلب من لورد جورنج البقاء لتناول الشاي معهم . فيشكرها لورد جورنج ويتحدث معها بلطف حول قبعتها الجميلة .. وتغادر ليدي شيلترن الموقع ، فيتوجه سير شيلترن بالشكر إلى صديقه لورد جورنج الذي يعلن له أنه لا داعي للشكر؛ لأنه لم يقم بفعل أي شيء بعد.. فيقول له إنه يشكره لأنه على الأقل أتاح له الفرصة ليعترف بالحقيقة ، وعندما تعود الزوجة يتهرب منها روبرت بسرعة ، ويتعلل بأنه مشغول بكتابة بعض الخطابات المهمة.

يتحاور لورد جورنج مع الليدي شيلترن حوارًا لطيفًا ، سرعان ما يأخذ الصبغة الجادة حين تطرق لمسألة السيدة شيفيلي .. لم تكن ليدي شيلترن

تعرف أي شيء عن القضية ، إلا أن السيدة شيفيلي كانت تسعى لكسب دعم سير روبرت المالي لمشروعها، الذي يمكن أن يلطخ سمعته فقام اللورد جورنج بمناقشة قضية افتراضية معها ، للوصول إلى حقيقة فهمها لموقف زوجها ! ولكن لم يكن عندها أي استعداد لتخيل كيف يمكن أن يقوم زوجها بمثل هذه التصرفات الغبية . فيصارحها لورد جورنج أن آراءها عن الحياة ، للأسف ، آراء حادة جدّا وقاسية ، تتجاهل طبيعة البشر في الميل إلى ارتكاب الأخطاء ويشرح لها بأن الحب ، والحب وحده ، هو الذي يمكن أن يفسر هذا العالم . فتسأله على الفور إن كان متشائمًا بطبعه ، فيجيبها بأننا يجب أن نحيا بالإحسان .. وأنه بالإحسان وحده يمكن فهم الحياة .. وفي النهاية ، وبجدية شديدة لفتت انتباه ليدي شيلترن ، يقول جورنج إنه مستعد لتقديم أي مساعدة ، إن كانت هي في حاجة لذلك .

تصل مابل وتعترف بأن الجدية والصراحة لا تليق باللورد جورنج؛ فيعتذر لها بأن عليه أن يغادر الآن فتقول له إن هذا تصرف خشن ، ثم يتناقشون حول أمور خفيفة ولطيفة ومرحة قبل أن يغادر اللورد جورنج. لقد حضرت مابل لترجو الليدي شيلترن أن تتوسط لها عند طومي ترافورد؛ ليتوقف عن الإساءة إليها بأحاديثه عن رغبته خطبتها، فترد عليه بحماسة أن طومي ينتظره مستقبل باهر ؛ فتعلن مابل أنها لن تتزوج شخصًا لمجرد أن له مستقبلا باهرا !

كما تصل أيضًا كلّ من الليدي ماركباى والسيدة شيفيلي أيضًا .. كادت مابل تهم بالانصراف ولكنها فكرت أن تتحدث إليهما قبل أن تغادر كبادرةٍ على الذوق الرفيع ؛ فتقول لها الليدي ماركباى إنها (أي مابل) أصبحت

شديدة الحداثة (الموضة) ، وهذا أمر له مساوئه ؛ حيث يمكن أن تصبح فجأة (موضة قديمة) !! تنصرف مابل بسرعة.. وتتحدث ليدي ماركباى إلى الليدي شيلترن وتخبرها أن السيدة شيفيلي حضرت لتسأل عن بروش فقدته في حفل الليلة السابقة .. وعند انتظارهم وصول أحد الخدم المسئول عن تنظيف وترتيب البيت ، ألمحت الليدي ماركباى إلى أن لندن أصبحت عاصمة مكتظة بالسكان ، وحين وصل الخادم أعلن أنه لم يعثر على أي بروش مفقود في تلك الليلة . بقيت السيدات لتناول الشاي ، وأظهرت الليدي ماركباى ازدراءها للتعليم العالي للمرأة ، بينما أفصحت الليدي شيلترن عن حقيقة أنها وزوجها السير روبرت من أكبر مناصري حقوق المرأة .

استمرت في الثرثرة حول تعليم الرجل، وعلي وجه الخصوص ، تعليم أزواجهن، وعن المرأة الحديثة .. ثم اعتذرت الليدي ماركباى عن عدم تناول الشاي لارتباطها بموعد زيارة إلى صديقة تقيم في الجوار ، وتغادر تاركة الليدي والسيدة شيفيلي معًا ، وعلى الفور تعترف السيدة شيفيلي أن الليدي ماركباى هي أكثر امرأة التقت بها تتحدث كثيرًا جدًا ولا تفعل أي شيء .

كانت الليدي شيلترن لازالت واقفة في برود ، حين بدأت حديثها إلى السيدة شيفيلي قائلة إنها لو لم تكن تعرف السيدة شيفيلي منذ سنوات الدراسة ، ما وجهت إليها الدعوة لحضور حفل الليلة السابقة.. فرحت السيدة شيفيلي بهذا الحديث ، وألمحت إلى أن الليدي شيلترن لم تتغير قط .

وأثناء الحوار بينهما ، عرفت السيدة شيفيلي أن الليدي شيلترن هي التي دفعت السير روبرت ؛ ليكتب لها الخطاب الذي كشف فيه عن عدم مساندة

السيدة شيفيلي في مشروعها المالي . وهي أيضًا التي طلبت منه تغيير قراره .. في تلك اللحظة بالذات ، يدخل السيد روبرت ، فإذا بالسيدة شيفيلي تعلن في عصبية حادة أن السيد روبرت محتال ومخادع وغير أمين ، ثم تعترف مباشرة دون أدني قدر من الحساسية أن السير روبرت قد باع أحد أسرار مجلس الوزراء المهمة إلى أحد سماسرة البورصة ، ليجني ثروته تلك .. وعلى الفور تلتفت الليدي شيلترن إلى زوجها وتسأله : هل هذا الكلام صحيح ؟! ، فيأمر السيد روبرت السيدة شيفيلي بمغادرة بيته فورًا .

تتوسل الليدي شيلترن إلى زوجها أن يعلن إنكاره لهذه الاتهامات ، ولكنه لم يفعل، ويتجه نحوها لتهدئتها .. فتحذره ألا يقترب منها ، وأخذت تبكي وهي تقول إنه إذا كذب على العالم كله ، فلن يكذب عليها. وتدفعه بعيدًا عنها وهي تصيح في ألم : لماذا جعلت منه معبودها دون رجال العالم ، واعتبرته مثلها الأعلى في الحياة ؟!! يرد عليها السيد روبرت في رثاء لها : إن ما حدث كان خطؤها هي ، بل إن هذا الخطأ تقع فيه معظم النساء ، ويصيح قائلاً : لماذا يصنعن منهم تماثيل حجرية جامدة ؟! ولماذا يحب الرجال النساء بكل نواقصهن وعيوبهن ؟ ثم يقول لزوجته :

إنها جعلت منه معبودًا مزيفًا ، كما أنه لم تكن لديه القوة الكافية ليعترف لها بعيوبه ونواقصه ، وينهي حديثه بقوله : أما وقد فقد حبها له ، فقد دُمرت حياته.

(ويسدل ستار الفصل الثاني)

الفصل الثالث

يبدأ الفصل الثالث في بيت اللورد جورنج ، وهو يستعد للخروج لقضاء المساء في الخارج .. يتواجد فيبس كبير الخدم ، (يعتبره أوسكار وايلد المسيطر على الشكل العام ، كما يصفه أيضًا بالخادم المثالي أسوة بعنوان المسرحية زوج مثالي). يدخل اللورد جورنج مرتديًا ثيابًا فاخرة ، ويتحدث جورنج إلى فيبس ويكاد يكون الحوار من جانب واحد ؛ لأنه يتحدث عن الموضة والمجتمع وأزرار ملابسه .. وأثناء هذا الحوار يقوم فيبس بدور الرجل الموافق دائمًا (Yes Man) .. يناوله فيبس ثلاث رسائل وصلت صباح ذاك اليوم ، إحداها من الليدي شيلترن والتي كتبت تقول : أريدك . أنا أثق فيك . سأحضر إليك .. لم تكن الرسالة موجهة إلى شخص محدد ، كما أنها موقعة باسم جيرترود .

يدخل اللورد كافرشام ليوبخ ابنه ولكنه يعود ، ويقول له إنه جاء ليتحدث معـه حديثًا جادًا ، فيخبر ابنه اللورد جورنج أنه يجب أن يتزوج ؛ لأنه لا مكان للعزّب في العصر الحديث، وأنه عليه أن يتزوج فورًا. وبينما كان أبوه يصفه بتحجر القلب ، عاد اللورد جورنج يتحدث عن الأمور التافهة مثل أزرار قميصه . يتحركون إلى غرفة التدخين ، ويتحدث إليه اللورد جورنج عن الحالات العاطفية في العصر الحديث. يعتبر أبوه أن ما يقوله جورنج هو استهانة به شخصيًا، فيسأله بصوت مرتفع : إذا كان يفهم ما يقول؟! يطول الحوار بينهما جدًا ، ولكن يظهر منه بوضوح الاختلاف بين الجيلين . وأثناء هذا الحوار يذهب اللورد جورنج ويتحدث إلى فيبس جانبًا ويهمس له أن هناك سيدة ستحضر إلى زيارته ، وعليه

إدخالها إلى غرفة الجلوس لتنتظره، ويضيف إن هذا الأمر بالغ الأهمية ولا يسمح لأي أحد بالدخول ، ثم يعود للتحدث إلى أبيه في غرفة التدخين .

يدخل الخادم هارولد ومعه السيدة شيفيلي ، التي تسأل عن اللورد جورنج فيخبرها فيبس أنه مشغول مع أبيه اللورد كافرشام وأنه أمر بإدخالها في غرفة الجلوس لتنتظر حتى يحضر إليها .. اندهشت السيدة شيفيلي لأن اللورد جورنج يتوقع حضورها ، ويفتح لها غرفة الجلوس ، ويسمح لها بالدخول . وتعلق تعليقًا ظريفًا أن توقع غير المتوقع دليل على ذكاء عصري ، ثم تنظر إلى غرفة الجلوس ، وتعلن أنها غرفة عزباء بشعة ، وتتمنى أن تقوم بتغيير كل هذا .

وتتعجب السيدة شيفيلي من أن ينتظر اللورد جورنج حضورها ، وقررت أن تنتظر الفرصة حتى تمسك بها ، وتبدأ في العبث في بعض أوراق جورنج ومراسلاته إلى أن تعثر على الخطاب المكتوب بخط الليدي شيلترن؛ لأنها تعرف خط يدها جيدًا . فتلمع نظرة الانتصار على وجهها ، تهم بسرقة الخطاب ، ولكن يظهر فيبس في وسط الغرفة. ويخبرها أنه تم إشعال الشموع في غرفة الضيوف فتتبعه ، وبعد أن يغادر فيبس الغرفة تتسلل هي إلى المكتب في الغرفة الأخرى ، ولكنها تسمع أصوات مرتفعة قادمة من غرفة التدخين ، فتخاف وتهرول إلى غرفة الضيوف .

كان اللورد جرونج يتشاحن مع أبيه اللورد كافرشام حول مسألة الزواج، وكان جورنج متمسكًا بحقه في اختيار الفتاة والوقت والمكان ، فأكد له أبوه أن اختياراته ستكون غبية . يدفع جورنج اللورد كافر شام نحو الباب برفق ، ثم - وبلا حيلة - يعود ومعه سير روبرت شيلترن ، الذي

يقول إنه سعيد لعثوره على جورنج في البيت ، ولكنه يرد عليه بأنه مشغول جدّا ولا يستطيع مقابلته .. فيخبره شيلترن بأن زوجته قد عرفت كل شيء من السيدة شيفيلي ، وبالتالي يجب أن يتحدث معه .. يدفن وجهه بين كفيه .. وفي إجابة عن سؤال جورنج ، يقول شيلترن إنه تلقى الرد من فيينا، ولا يوجد شيء ذو قيمة يمكن أن يدين به شيفيلي .. لقد علم فقط أن السيدة شيفيلي تشغل مكانة رفيعة في المجتمع ، وأن البارون ارنهايم قد أوصى لها بجانب كبير من ثروته .

أخـــذ روبرت يـــردد أنه لا يعرف ماذا يفعل ، ويسأل جـــورنج هـــل لا يزال يثق به .. فيؤكد له ذلك . في هذه الأثناء يخرج جورنج للتحدث مع فيبس الذي يخبره أن السيدة التي كان في انتظارها تجلس الآن في غرفة الجلوس ، فيظن أنها الليدي شيلترن فيقرر أن يتحدث إليها عبر الباب في الوقت ذاته ، الذي يتحدث مع روبرت شيلترن في الناحية الأخرى .

يعود مرة أخري إلى روبرت ويسأله إن كان لا يزال يحب زوجته ، فيجيبه روبرت أنه يحبها أكثر من أي شيء في العالم .. فيقول جورنج إنه مادامت زوجته تحبه فسوف تصفح عنه . يحاول جورنج أن يجعل شيلترن يرحل ، ولكن يرجوه شيلترن أن يبقى لمدة خمس دقائق فقط ؛ ليخبره بما سوف يقوله في اليوم التالي عن صفقة قناة الأرجنتين .

في هذه الأثناء يُسمع صوت سقوط مقعد في غرفة الضيوف ، وهنا يرى روبرت أن من حقه أن يعرف من الذي يتصنت على أسراره.. ينفي جورنج وجود أي أحد ، بينما يعتقد روبرت بوجود أحد في غرفة الضيوف ، ويقرر أن يري بنفسه .

يندفع شيلترن إلى الباب ، فيضطر جورنج للاعتراف أن هناك شخصًا ما في الداخل ، ولكنه لا يستطيع الكشف عنه.. يصمم شيلترن على الدخول مهما حدث ، فيفزع جورنج ظنًا أنه تم كشف سر ليدي شيلترن . يعود سير روبرت وهو يستشيط غضبًا ويطلب من جورنج تفسير ما يحدث ، فيعترف جورنج ، الذي لم يكن يعرف أن السيدة التي بالداخل هي السيدة شيفيلي ، فقال مدافعًا عن الليدي شيلترن : إن هذه السيدة شريفة وعفيفة ، وإنها لم ترتكب أي أثم .. فيرد شيلترن بعصبية بأنها امرأة شريرة وسيئة السمعة ؛ فيستمر جورنج في دفاعه عن السيدة التي يظن أنها الليدي شيلترن .. بينما يستمر سير شيلترن في توجيه الإهانات إلى السيدة شيفيلي ، بينما يواصل لورد جورنج دفاعه ، ويتهم شيلترن بأنه صديق مزيف وعدو !

يغادر سير روبرت المكان وتدخل السيدة شيفيلي وتكشف عن نفسها ، فيصاب اللورد جورنج بدهشة شديدة .. ويبدأ الاثنان في الكلام فيحاول جورنج تصحيح الموقف ، فيقول لها إنه يعتقد أنها جاءت لتسليمه ذلك الخطاب الذي أرسله سير روبرت إلى البارون آرنهايم .

لقد عرفنا أن السيدة شيفيلي دفعت اللورد جورنج في شبابهما إلى الغواية من أجل المال ، ومع ذلك تعترف أن حبها له أقوى مما كان وتقول إنها تنوي أن تعيد الخطاب له إذا تزوجها اللورد جورنج . وتشرح له أنها تريد الاستقرار في لندن ، وأنها حين رأت جورنج في الحفل في الليلة السابقة تأكدت أنه هو الشخص الذي تبحث عنه ؛ فيتظاهر اللورد جورنج بالاستجابة ويدعي أنه سيكون زوجًا سيئًا جدًا ، فتقول السيدة شيفيلي إنها كانت تتوقع منه أن يضحي بنفسه من أجل إنقاذ صديقه ، فيجيبها اللورد جورنج أنه يعتقد أن التضحية بالنفس تكون مدمرة في مثل هذه الحالات !

يقول اللورد جورنج لها في دفاعه عن صديقه إنه يمكن اعتبار كل ما حدث كنوع من طيش الشباب ، فتهاجمه السيدة شيفيلي قائلة إن الرجال دائمًا يساندون بعضهم البعض ، فيؤيدها جورنج في ذلك ؛ لأن النساء يحاربن بعضهن البعض فتخبره بأن السيدة الوحيدة التي تحاربها هي الليدي شيلترن .

تقرر السيدة شيفيلي الانصراف وتريد مصافحة اللورد جورنج ، ولكنه يرفض قائلاً إنه لن يغفر لها ما فعلته بالليدي شيلترن ؛ فتقسم له إنها لم تذهب إلى الليدي شيلترن لتكشف لها عن مساوئ زوجها ، ولكنها ذهبت بحثًا عن البروش الذي فقدته في الحفلة فيصفه لها .. فتؤكد أنه هو .. يذهب جورنج لإحضار البروش من دولابه ، ودون أن يشعر يضعه حول معصمها ، فاندهشت السيدة شيفيلي لأنها لم تكن تعرف أنه يمكن استخدامه كإسورة ، فيقول لها جورنج إنه يبدو أكثر رقة عما رآه من قبل أي منذ عشر سنوات حين أهداه إلى الليدي بيرك شاير كهدية زفاف .. فيوجه جورنج لها الاتهام بسرقة البروش ، فأنكرت الاتهام بسرقة البروش ، في الوقت ، الذي تم فيه توجيه الاتهام إلى أحد الخدم ، حيث تقرر طرده. وقد حاولت السيدة شيفيلي نزع الإسورة دون جدوى.

شرح لها جورنج أنه لا يمكن العثور على قُفْل المشبك ، إلا إذا اعترفت له أين هو .. فأصابها الفزع ، وبدأت تحك يدها فأعلن اللورد جورنج الذي استجمع كل قوته في هذه اللحظة ، أنه سيأمر خادمه باستدعاء البوليس فتوسلت إليه أنها على استعداد أن تفعل أي شيء من أجله على ألا يستدعي البوليس ، فيطلب منها خطاب السير روبرت إلى البارون آرنهايم . وبعد

فشل محاولات التهرب تسلمه الخطاب ، ثم تطلب شربة ماء ، وما أن استدار حتى قامت بسرقة خطاب الليدي شيلترن ، وقالت له إنها سوف تُسدي معروفًا للسير روبرت شيلترن ، حين تكشف له أنه خُدع في زواجه وأنها سوف تقدم الخطاب الغرامي الذي كتبته الليدي شيلترن إليه .

يطلب منها جورنج تسليمه الخطاب بتهديدها لكنها تقوم بالضغط على جرس الخدم فيدخل فيبس فتقول له بذكاء إن الذي دق الجرس هو اللورد جورنج ؛ ليأمره باصطحابها إلى الخارج ، وتغادر البيت وفي عينيها بريق الانتصار !

الفصل الرابع

يعود المنظر إلى ما كان عليه في بداية الفصل الثاني ؛ أي غرفة الاستقبال في بيت سير روبرت شيلترن .. يقف اللورد جورنج أمام المدفأة ويضغط على زرار الجرس ، فيدخل الخادم ، الذي يخبره أن مابل قد عادت لتوها من رياضة الخيل ، وأن الليدي شيلترن موجودة في مكان ما في المنزل ، بينما ينتظره اللورد كافرشام في المكتبة . في هذه الأثناء يدخل اللورد كافرشام ، ويسأل ابنه إن كان قد فكر فيما اتفقا عليه من قبل بشأن زواجه ؛ فيرد عليه أنه لم يفكر في أي شيء آخر . وهنا يشعر الأب أن ابنه يسخر منه بكلامه هذا، ويقول له إن عليه أن يخبر الناس حين يجيء الوقت الذي يتكلم فيه بجدية ، فيرد الابن بأن هذا أيضًا صعب . فيقترح الأب عليه أن يتقدم لخطبة مابل.. هذا إن وافقت هي عليه . ثم يخبر ابنه عن الخطاب الرائع الذي ألقاه سير روبرت شيلترن في البرلمان ، والذي أعلن فيه رفضه لمشروع قناة الأرچنتين ، وقد امتدحت الصحف هذا الخطاب وأعلنت أنه نقطة فارقة في مستقبل سير روبرت شيلترن السياسي .

تدخل مابل وتتحدث في مرح ودلال إلى اللورد كافرشام ؛ متجاهلة لورد جورنج تمامًا ، لأنه لم يهتم بالموعد المحدد بينهما لركوب الخيل ، إلاّ أنها تنظر إلى جورنج وتقول له إنها لن تتحدث إليه مرة ثانية .. ثم تطلب من لورد كافرشام أن يعلم ابنه احترام الآخرين ، فيرد الأب بأنه فقد التأثير عليه.

يغادر لورد كافرشام المكان ليترك جورنج مع مابل وحدهما ، فتقول للورد جورنج في دلال إن من يتخلف عن موعده يُعد إنسانًا بشعًا، فيرد عليها جورنج : معك حق ! ومع ذلك يطلب منها أن تبقى لأنه يشعر بالسعادة دائمًا لوجودها ، وأن تكون جادة في تلك اللحظة لأن هناك شيئًا

مهمًا يريد اطلاعها عليه ، ويعترف لها بحبه ، فهل تبادله الحب ؟!.. إن كانت تحبه فسيطلب الزواج منها .. فترد عليه مابل بسرعة إنها تتهمه بالبلاهة إن لم يكن يشعر بعمق حبها له ! خاصة أن نصف سكان لندن أصبحوا يعرفون هذا الأمر !

تدخل الليدي شيلترن ، وتهنئ جورنج ومابل ، بينما تخرج بسرعة لتنتظر جورنج في صوبة النباتات .. يخبر اللورد جورنج الليدي شيلترن أنه قد حصل على الخطاب من السيدة شيفيلي ، وقام بحرقه ، وهكذا أصبح روبرت في مأمن ، وفي ارتياح شديد تقول له : كم هو صديق طيب ورائع لهما .

وعلى الفور يخبرها أن السيدة شيفيلي قد سرقت الرسالة التي أرسلتها له ، وقررت إرسالها إلى زوجها ، لتؤكد وجود علاقة غير موجودة بيننا !. ويطلب لورد جورنج اطلاع السير شيلترن على كل شيء ليعرف الحقيقة ؛ لكنها ترجوه ألا يخبره بأي شيء ، ويقومان برسم خطة يقوم بموجبها ترافورد باسترداد الخطاب منها قبل وصوله إلى يد السير روبرت . وبينما ذهب لورد جورنج ليتحدث إلى سكرتيره، فوجئ بمقدم السير شيلترن وهو يحمل الرسالة في يده !

يدخل سير روبرت ويعلن صراحة أنه اعتقد أن زوجته كتبت الخطاب إليه .. فيرد جورنج كم يسعده احتياج الليدي شيلترن له ؛ فترد الليدي شيلترن إنها فعلاً تثق به ، ويخرج لورد جورنج إلى صوبة النباتات . وهنا تخبر الليدي شيلترن زوجها أن السيدة شيفيلي قد سلمت جورنج الخطاب الذي كتبه إلى البارون آرنهايم ، وقد أحرقه الرجل . فيرذ عليها أنه سعيد لأن جورنج قد أحرق إحدي خطاياه القديمة ويسألها إن كانت توافق على اعتزاله الحياة العامة ، رغم أنه يخشي الاستسلام لأشياء أخري إن هو اعتزل؛ فترد عليه أنه لن يخسر ، لكنه سيكسب كثيرًا من قراره النبيل هذا .

حين يعود لورد جورنج ، يشكره سير روبرت على ما فعله من أجله، ويدخل لورد كافرشام ليهنئ سير روبرت على خطابه الرائع في البرلمان ، ويقول له إن رئيس الوزراء أعلن أنه يتمنى أن يجلس سير روبرت شيلترن مكانه في الوزارة . فيشعر الرجل بسعادة وتباهٍ وانتصار، ولكنه حين ينظر إلى عين زوجته ، يتراجع عن هذا العرض ، ويخبر كافرشام أنه اتفق وزوجته على اعتزال الحياة العامة. فيتوسل لورد كافرشام إليها أن تقنع زوجها بالتراجع عن قراره ، ولكنها تخبره أنها تحترم قراره وتؤيده ، ويخرج الاثنان وإن كانت في فم السير روبرت مرارة لعزمه كتابة خطاب اعتذار إلى رئيس الوزراء .

يتهمها اللورد كافرشام بالعَبط ولكن ابنه يرى أن الأمر كله نغمة أخلاقية رفيعة المستوى ، فيعترف العجوز أنه لا يفهم شيئًا ، فينصحه ابنه بالذهاب إلى صوبة النباتات حيث تنتظر مابل .. يخرج الرجل بينما تدخل الليدي شيلترن ، وهنا يسألها لورد جورنج : لماذا تتبع خطوات شيفيلي في تدمير قدرات زوجها ؟! فتقول إنها لا تفهم ؛ فيشرح لها أن النساء الطيبات يصفحن عن أزواجهن ، ولا يعقدن لهم المحاكمات ، وأنها حين تسلبه طموحه ، إنها تقتل بيدها حبه لها ؛ فتقول إن السير روبرت هو الذي قرر أن يعتزل الحياة العامة.. فيرد عليها جورنج إنه إنما يفعل ذلك للحفاظ على حبك له ، وأن التضحية التي سيقدم عليها ، لا ينبغي أن تطلبيها منه. بدأت ليدي شيلترن تفكر في كل ما قيل ، وأخيرًا تعترف أنها وضعته عاليًا، لكن فوق مذبح !

يدخل السير روبرت ويعطي لها خطاب اعتذاره عن عدم الاشتراك في الوزارة . فتأخذ الخطاب وتقرأه ثم تمزقه ، وتبدأ جيرترود أو الليدي شيلترن في استرجاع كل كلمة قالها اللورد جورنج عن الدور الخالد الذي

يقوم به الرجل والمرأة ، وتعلن أنها يمكن أن تصفح عن السير روبرت، وأنها بهذا الصفح تنقذ نساء العالم كله !

يحتضن لورد شيلترن زوجته بحنان ، ويشكر لورد جورنج على كل ما فعله من أجله .. وهنا يتشجع جورنج ويطلب الزواج من أخته مابل ، ولكن سير روبرت يبدأ في التحول إلى الصرامة والجدية ويعلن رفضه لهذا الطلب، إذ كيف يوافق له على الزواج من شقيقته الصغيرة، بينما هو متورط في علاقة مع السيدة شيفيلي ! وهنا وفي شجاعة نادرة ، تعلن ليدي شيلترن أنها هي تلك المرأة التي كان ينتظرها لورد جورنج لمساعدتها في حل الأزمة. وأن الخطاب الذي تلقاه سير روبرت هو الخطاب الذي كتبته له بخط يدها .. يفهم سير روبرت هذه المعادلة المعقدة ، ويعلن احترامه الشديد لزوجته ، وصديقه العزيز جورنج ، ويوافق له فوراً على الزواج من شقيقته مابل .

يدخل لورد كافرشام ومابل ، وقد اندهش لسماعه خبر الخطوبة، ويرجو أن تجعل منه زوجًا مثالياً .. فتعلن مابل أنها لا تريد ذلك الزوج المثالي .. إنها فقط تريد أن تكون زوجة حقيقية له .. يشعرون بالفرح والبهجة ، ولكن كافرشام يشعر بمزيد من السعادة لأن السيد روبرت شيلترن قد قَبِلَ كرسي الوزارة ويخرجون لتناول الغذاء .. ولكن السير روبرت شيلترن يعود ويسأل زوجته : هل هي - حقًا - الشفقة عوضًا عن الحب الذي تشعر بها نحوه ؟! فتقول : إنه الحب كله ، وتقسم له أن حياتها ستبدأ من جديد معه !!

***

وليم شكسبير

William Shakespeare

مسرحية

يوليوس قيصر

Julius Caesar

الفصل الأول

ـ المشهد الأول ـ

وقع نظر النائبين الرومانيين ، فلافيوس وموريللوس على مجموعة من العامة يتجمعون في الشوارع بدلاً من ذهابهم إلى أعمالهم.. وكانا في دهشة لانصراف هؤلاء الناس عن أعمالهم ، فيبلغهم إسكافي أن تجمع العامة وحشودهم في ذلك اليوم بهدف الاحتفال بالنصر الذي حققه يوليوس قيصر ، فيتضايق موريللوس ويعنف العامة ويصفهم بالبلادة والتنطع ، ويصيح فيهم قائلاً : إن قيصر لم يحرز النصر على أي أعداء ، وإنما قام بقتل أبناء بومبي العظيم ، الذي كان شريك قيصر في حكم روما حتى دب الخلاف بين الاثنين ، وتغلب عليه قيصر واستولي على الحكم . بعد ذلك قام فلافيوس بإلقاء خطبة قوية ، سخر فيها من هؤلاء العامة وجعلهم ينصرفون ، وهم يشعرون بالخزي لاحتفالهم بانتصار قيصر . وبعد انصراف هؤلاء الناس ، يشرع فلافيوس وموريللوس في نزع التيجان الإمبراطورية الموضوعة على رءوس كل تماثيل قيصر .. بل دفعا كل الناس أو ساقوهما مثل القطيع إلى ديارهم ؛ لمنع أي شخص في روما من الاحتفال بانتصار قيصر .

ـ المشهد الثاني ـ

في هذا المشهد يعود يوليوس قيصر منتصرًا إلى روما في ذكرى الاحتفالات بعيد اللوبركال الديني ، الذي اعتاد الرومانيون الاحتفال به في منتصف شهر فبراير من كل عام ويصل قيصر ويتبعه أنطوني وبروتس وزوجاتهم وحشد كبير من الأتباع . ولأن من طقوس الاحتفال بالعيد الديني اللوبركال ، أن يهرول بعض رجال الدين في الشوارع ويضربون النسوة اللاتي يقفن أمامهم بسياط مصنوعة من جلد الماعز ، ظنًّا أن هذا يسبب لهن الحمل والإنجاب .. لذلك طلب يوليوس قيصر من أنطوني أن يجعل زوجته تجري ثم يضربها بسوط جلد الماعز لعلها تشفى من العقم ؛ فينطلق أنطوني مستجيبًا لعبارة قيصر ، وهو يقول في قناعة : « عندما يأمر قيصر بعمل شيء ما .. فهو أمر واجب التنفيذ » .

عندما همَّ قيصر بالانصراف ، اعترض طريقه عراف عجوز ، وطلب الحديث إليه .. فتوقف قيصر ليسمعه ، فإذا به يحذره قائلاً : « احذر منتصف مارس .. احذر منتصف مارس » .

لم يقتنع قيصر بما قاله العراف العجوز ، همّ بالانصراف وسط رجاله.. قبل خروجه يبقي قيصر وبروتس ، فينتحي به قيصر جانبًا ويقول له إنه قد لاحظه يتصرف بجدية شديدة في هذه الأيام ، فيجيبه بروتس بأنه في حالة حرب وصراع مع نفسه ولا داعٍ لقلق قيصر . يترامى إلى سمعهما هتافات بعض العامة من خارج خشبة المسرح بحياة قيصر ، وهنا يخبره بروتس أنه يخشي أن يُتوّجه الناس ملكًا على روما ، فيقول له قيصر وهو منتشٍ لذلك إنه وبروتس قد خلقا أحرارًا .. ثم يروي قيصر قصة صغيرة لبروتس ، مفادها أنهما كانا يسبحان في نهر التيبر ، عندما أوشك قيصر على الغرق .

فادعى كاسيوس أنه قد أنقذ قيصر من الموت غرقًا وحمله حتى الشاطئ . وبعد ذلك أخذ يشكو أن قيصر أصبح من القوة إلى درجة أنه يجب أن ينحني له حين يلتقي به ، رغم أنه هو الذي أنقذ حياته . وينصرف قيصر ! عندئذٍ يخبر كاسيوس بروتس أن له السيرة الطيبة ذاتها كما هي سيرة قيصر ؛ لذلك من السهل جدًا على الاثنين حكم روما !! ثم يحفز بروتس بتذكيره بسلفه الذي أسس جمهورية روما وطرد ملوكها السابقين . إن بروتس يخشى أن يصبح قيصر امبراطورَ على روما ، ولا يزال بداخله صراع قوي ، هل ينضم إلى كاسيوس في معركته ضد قيصر ، أم يقف ضد كاسيوس نفسه ؟!

سرعان ما يعود قيصر وسط حشد من أنصاره ويوجه كلامه إلى أنطوني، ويطلب منه أن يجمع حوله رجالاً ممتلئي الجسم ، برءوس صلعاء .. ينامون الليل بارتياح بدلاً من ذلك النحيف المسمي كاسيوس ، والذي لا تعرف عيناه النوم . ويواصل حديثه لأنطوني ، إن هؤلاء الرجال أمثال كاسيوس يشكلون خطورة شديدة .. كان أنطوني يحاول تهدئة قيصر ، فيرد عليه قيصر : إن كاسيوس ما عاد أهلاً للثقة . ويطلب من قيصر أن يصحبه ؛ ليحذره إن كان هناك خطر يهدد حياته .. ثم يغادران خشبة المسرح ، وسرعان ما يسمع الرجال المتبقون على المسرح ، وهم : كاسكا وبروتس وكاسيوس ، هتافات الجماهير متكررة ثلاث مرات ، فيخبرهم كاسكا أن هذه الهتافات الثلاث كانت بسبب قيام أنطوني بعرض التاج على قيصر ثلاث مرات، فيعيده إليه ثلاث مرات أيضًا .

ويضيف كاسكا : إن الشعب قد صفح عن قيصر ، وإن حب الناس له قد ازداد حين رفض التاج . كذلك يخبرهم كاسكا أنه قد تم إقصاء النائبين فلافيوس وموريللوس لما قاما به حيال تماثيل قيصر . وفي محاولته لضم

كاسكا إلى المؤامرة التي تتم ضد قيصر ، يدعوه كاسيوس على مأدبة عشاء الليلة التالية . بعد ذلك يتقدم كاسيوس في هدوء وخبث ناحية رواد المسرح، ليهمس لنفسه بأسلوب المونولوج الداخلي أو المناجاة ، ويفصح لهم أنه ينوي أن يكتب عدة رسائل ويلقي بها في بيت بروتس ، وكأنها رسائل من الناس تدعوه لسرعة التحرك ضد قيصر !!

- المشهد الثالث -

يلتقي كاسيوس بأحد أشهر خطباء روما ، وهو شيشرون ، ويخبره أنه أصبح يشاهد في شوارع روما مشاهد في غاية الغرابة ، مثل عبد يسير في الشوارع وقد احترقت يده ولم تبتر بعد ، وآخر يجري طليقًا ، و بومة تطير في وضح النهار . فيخبره شيشرون أن الناس أحرار في تفسير ما يرون، ثم ينصرف .

يصل كاسيوس إلى خشبة المسرح ويلتقي كاسكا ، ويخبره أن هناك تفسيرًا وراء كل هذه الظواهر الغريبة التي تحدث في روما فيقول له كاسكا : أنا أعرف أنك تقصد قيصر بهذا الكلام . أليس كذلك يا كاسيوس ؟!! . ويقوم كاسكا بإطلاع كاسيوس على أن أعضاء مجلس الشيوخ يهدفون إلى تتويج قيصر امبراطورًا صباح اليوم التالي . عندئذٍ وبلا وعي يُخرج كاسيوس خنجره ، ويقسم أنه مستعد أن يقتل نفسه دون منح قيصر هذه السلطة ، فإذا بكاسكا يصافح كاسيوس ، ويعاهده على العمل معًا لمنع قيصر من الوصول إلى هذه السلطة والقوة .

يصل سينا إلى المسرح ، وهو أحد المتآمرين ، ويأخذ أوراقًا من كاسيوس، ثم ينصرفان لإلقاء هذه الأوراق داخل بيت بروتس (من النافذة) ، ويعلن كاسيوس أنه على يقين من انضمام بروتس لهم في اليوم التالي .

الفصـل الثانى

ـ المشهد الأول ـ

يبدأ الفصل الثاني وقد وقف بروتس وسط حديقة بيته عاقدًا العزم على قتل قيصر .. ولعل السبب في وصوله إلى هذا القرار اعتقاده أن قيصر بدأ يسيء استخدام نفوذه ، وأنه يتهاوي بسرعة ! .

يدخل لوسيوس ، خادم بروتس ويسلمه رسالة ، عثر عليها في غرفة نوم بروتس (إحدي رسائل كاسيوس السرية) ، ويفض بروتس الرسالة ويقرأ ما جاء بها : لقد غفوت ما فيه الكفاية يا بروتس . وجاء الوقت لتنهض وتحمى نفسك . قام بروتس بتفسير هذه الرسالة، وكأنها مطلب شعب روما كله لقتل قيصر والتخلص منه !

عندئذٍ يسأل بروتس خادمه لوسيوس عن تاريخ ذاك اليوم ، فيقول: إنه الخامس عشر من مارس . يسمع لوسيوس طرقًا على الباب فيذهب ليفتحه، ويبقى بروتس وحده على المسرح ؛ ليعلن أنه لم يغمض له جفـن منذ أن أقنعه كاسيوس بالتخلص من يوليوس قيصر !

وصل المتآمرون ضد قيصر إلى بيت بروتس . وهم : كاسيوس وكاسكا وديسيوس وسينا وميتولس وتويبونيوس .. رحب بهم بروتس وانتحى جانبًا بكاسيوس ، ثم سرعان ما عاد إليهم ليصافحهم يدًا بيد، ويعلن تأييده وانضمامه إليهم في مؤامرتهم ضد قيصر . وتساءلوا فيما بينهم : هل يضمون شيشرون ، أشهر الخطباء ، إلى صفوفهم ؟ ولكن بروتس يقنعهم بنبذ هذه الفكرة ، ثم عاد كاسيوس واقترح اغتيال مارك أنطوني مع قيصر أيضًا . لكن وللمرة الثانية يرفض بروتس هذه الفكرة حتى لا يراق الدم

الكثير في هذه المؤامرة ؛ فقرر الجميع اغتيال قيصر أمام مبنى مجلس الشيوخ في الثامنة من صباح اليوم التالي ، رغم قلقهم من احتمال عدم حضور قيصر إلى جلسة مجلس الشيوخ ، في ذلك الصباح ؛ خاصة أنه أصبح متشككًا ومتخوفًا مما تجري به الأحداث في تلك الشهور.. ولكن ديسيوس أبدي استعداده للتأثير على قيصر وإقناعه بضرورة حضور جلسة مجلس الشيوخ ، وبعد الاتفاق على كافة التفاصيل غادر كاسيوس والرجال بيت بروتس وتركوه وحده !

تصل بورشيا زوجة بروتس وتتحدث إليه وتبدي قلقها ؛ لأنه غادر فراشه مبكرًا وقد رماها بنظرة غريبة وقاسية أثارت دهشتها ، وتتوسل إليه أن يخبرها بسر قلقه وتوتره واعتلال مزاجه ، فيتحايل عليها ويجيب عن تساؤلاتها بأنه فعلاً يعاني من علة ، فترد عليه بذكاء أن العلة في عقله ، وليست في بدنه !

ولأنها امرأة ذكية وشجاعة ، تعاود سؤاله عما به ، وتقول له : لعلك تعرف أني أقوى ممن هن في مثل جنسي .. وقد كان لي مثل أبيهم ومثل زوجي ، فأخبرني بما يدور في عقلك وأنت تعرف أني لن أبوح بالسر لأي أحد .

يتأثر بروتس بكلمات زوجته ، وما أن يهم بأن ينقل لها ما يحمله فؤاده من أسرار وهموم ، حتى يطرق الباب ، فيسرع خادمه ليفتح ، ويرجو بروتس زوجته بورشيا أن تدخل إلى غرفتها ، على وعد منه أن يحكي لها كل شيء .. يدخل ليجاريوس متظاهرًا بالمرض ، ويرجو بروتس أن يخبره بالأهداف النبيلة في رأسه ، ويعده بالالتزام بها والسير وراءه فيما يأمر به .

- المشهد الثاني -

لا يزال قيصر في بيته بثياب النوم .. كان خائفًا ومتطيرًا من حلم مخيف ، أفزعته به زوجته كالبورينا ، فقد حكت له أنها كانت تصرخ في هذا الكابوس النجدة ، النجدة يا صاح . إنهم يغتالون قيصر ! يتضايق قيصر من هذا الحلم المخيف وعلى الفور يأمر خدمه بالذهاب إلى الكهنة ليطلبوا منهم التضحية بحيوان ما ، لعلهم يستطلعون الغيب ويقرأون المستقبل ثم يتنبأون بالمحتمل . تدخل زوجته كالبورينا إلى المسرح ، وترجو قيصر ألا يغادر البيت في هذا اليوم .. ولكن قيصر يتصرف بشجاعة غير مستبعدة عنه ويخبر زوجته أنه لا يهاب شيئًا ، وأنه سيموت إن كان مقدرًا له الموت ثم يدخل خادمه ويخبره أنه قد تم التضحية بحيوان كما أمر ، ولكن الكهنة لم يجدوا لهذا الحيوان قلبًا، مما يُعدّ نذير شؤم . مع ذلك لا يأبه قيصر لتفسير هذا النذير السيىء. وترجوه زوجته ألا يذهب إلى مجلس الشيوخ على أن يلقي عليها باللائمة فيما بعد ؛ فيوافق فعلاً على عدم الخروج إلى جلسة مجلس الشيوخ !

لكن – وحسب خطة التآمر – يصل ديسيوس إلى بيت قيصر ؛ ليصحبه إلى مجلس الشيوخ ، فيطلب منه قيصر إبلاغ أعضاء المجلس أنه لا يستطيع حضور هذه الجلسة ؛ فيراوغ ديسيوس بذكاء بأنه يخشى سخريتهم وتهكمهم إن لم يقدم مبررًا مقنعًا لغياب قيصر .. فيصارحه قيصر بحقيقة الحلم الذي رأته زوجته في نومها ، فيؤكد له ديسيوس أن الحلم قد سيء تفسيره ، وما حكاية نافورة الدم تلك التي تنبثق من جسد قيصر ، والتي رأتها ، إلا ذلك المستقبل المزدهر الذي تنتظر روما تحقيقه على يد قيصر!

واستطاع ديسيوس الخبيث أن يوهن عزيمة قيصر ويسخر منه بقوله: إنه يمكن للشيوخ تأجيل الاجتماع حتى موعد الحلم الذي تري فيه كالبورينا زوجة قيصر الخير لـه ! فيوافق قيصر على الفور ويقرر الذهاب إلى مجلس الشيوخ !.. وعندئذٍ يصل كاسيوس وبقية المتآمرين لاصطحاب قيصر إلى مجلس الشيوخ ! كما يظهر أنطوني وينضم إلى الجمع الذي يرافق قيصر في موكبه .

ـ المشهد الثالث ـ

كتب أرتيميدروس رسالة إلى قيصر ، يحدد له فيها أسماء كل من يشارك في هذه المؤامرة ضده ، ووقف على ناصية شارع من المفترض أن يمر به موكب قيصر بجوار مبنى الكابيتول ليسلمه هذه الرسالة .

ـ المشهد الرابع ـ

تأمر بورشيا خادمها ليسيوس بالذهاب إلى مجلس الشيوخ فيسألها عن المهمة المنوط بها ؛ فتقول إنها لا تستطيع إخباره بها ، ولكنها تلتفت إلى جمهور المسرح وتهمس لهم بأنها تمتلك عقل رجل ، وإدارة امرأة ، وكيف يصعب على المرأة حجب النصيحة أو المشورة . وتلمّح للجمهور ، بأنها تعرف حقيقة ما يهدف إليه بروتس ، وأنها غير مرحبة بالاحتفاظ بهذا السر. بعد ذلك تلتقي بورشيا وذلك العراف العجوز الذي سبق أن حذر قيصر مما سيجري له ذاك اليوم ، فيتحدث إليها ويعدها أن يحاول مرة أخرى وأخيرة تحذير قيصر من المصير الذي يندفع نحوه ذلك البطل التراجيدي .

الفصل الثالث

ـ المشهد الأول ـ

يتجه قيصر إلى مجلس الشيوخ مباشرة محاطًا بشركاء المؤامرة ضده .. تقع عيناه على العراف العجوز ، فيقول له : ها قد انتصف شهر مارس !! فيرد العراف : نعم يا قيصر .. لكن اليوم لم ينته بعد . على أي حال ، لم يبال قيصر لأمره ، وشق طريقه إلى المجلس .. في هذه الأثناء حاول آرتيميدروس تسليم قيصر الرسالة قائلاً له : إن فحوى الرسالة له علاقة بحياته ومصيره . لكن رد فعل ديسيوس كان أسرع حيث أخبر قيصر بسرعة ، ليشتت انتباهه ويصرفه عن رسالة آرتيميدروس ، أن لديه تقريرًا من تريبونياس يجب أن يطلع عليه بسرعة. فاتجه إلى آرتيميدروس وقال له : إن ما يتعلق بحياتنا ومصيرنا يجيء في المرتبة الأخيرة .

ما إن اقتربوا من المجلس ، حتى جذب تريبونيا أنطوني بعيدًا عن قيصر ليجعله يعتدي على قيصر بمحض إرادته واختياره .. اتخذ قيصر مجلسه في مجلس الشيوخ وطلب من ميتليوس سيمبر أن يتوسل إليه ؛ فارتمى الرجل على قدمي قيصر يتوسل إليه عدم نفي شقيقه ، ولكن قيصر يأمره أن ينهض، ويخبره أنه لن يقدم له أي معروف قائلاً: إن قيصر لا يخطئ لكنه يسعى للعدل ..



في تلك اللحظة يتقدم بروتس في مواجهة قيصر بشكل مفاجئ الأمر الذي أثار دهشة قيصر ، وقد توسل إليه بروتس ليعفو عن شقيق الرجل . وينضم إليه كاسيوس .. فيرد عليهم قيصر إن قراره ثابت وراسخ مثل نجم الشمال ، وإنه لن يتنازل عن نفي شقيق الرجل.. يتقدم سينا ، فيقول له قيصر : تريدني أن أرفع العقاب ، فهل تستطيع أنت يا سينا أن ترفع جبل الأوليمب ؟! .. ثم يأتي ديسيوس وليجاريوس يركعان أمامه ، ثم يركع كاسكا ويقول : تكلمي نيابة عني أيتها اليد ، ثم سرعان ما يطعن قيصر في رقبته ، لكن ينجح قيصر في الإمساك بيده بقوة ليمنعه من قتله ! لكن سرعان ما انهالت عليه الخناجر ، الواحد تلو الآخر . وكان آخرهم بروتس الذي تقدم نحوه وطعنه طعنة قاتلة . عندئذٍ قال قيصر عبارته المشهورة : «حتى أنت يابروتس . إذًا فليسقط قيصر» .

هنا تقدم سينا وأخذ يصيح : « الحرية : الحرية . مات الطاغية » .. تدافع بقية أعضاء مجلس الشيوخ الذين لا يعرفون شيئًا ، لاستطلاع الأمر ، فوقف المتآمرون جنبًا إلى جنب لحماية بعضهم بعضًا ، فصاح فيهم بروتس قائلاً :

هيا . هيا . أيها الرومانيون الأحرار فلنغسل
أيدينا حتى المرافق بدم قيصر .
ولنخضب السيوف بدمه .. ونتجه الآن حتى
ميدان السوق ، ولنلوح بأسلحتنا المخضبة بالدم
فوق رءوسنا .. ولنهتف جميعًا :
السلام والحرية ..
السلام والحرية !

يواصل كاسيوس ابتهاجه بهذا العمل ، وهو يقول : كم من أجيال سوف تأتي بعدنا ، يقومون فيها بتمثيل مشهدنا النبيل هذا . ربما في بلاد لا نعرفها بعد ، وبلغات لا نعلم عنها شيء ؛ فيضيف إليه بروتس : إنهم الرجال الذين ضحوا بحياتهم في سبيل الحرية .

وصل خادم مارك أنطوني ، وتقدم مباشرة ناحية بروتس ، وقال له إن سيده أنطوني يريد أن يلتقي به ليعرف لماذا كان على قيصر أن يموت ؟ يطلب بروتس من الخادم أن ينقل لسيده أنطوني الوعد بعدم إصابته بأي مكروه ، وأن يأتي به ليلقاه .

يصل أنطوني ويعلن أسفه على موت قيصر ، ويطلب من القتلة خاصة بروتس أن يعلنوا أمامه لماذا فعلوا ما فعلوا ؟ فقال له بروتس: إن قيصر كان على وشك إلحاق الدمار بالجمهورية ؛ فكان لابد من إقصائه عن الحكم .

يتظاهر أنطوني بالاقتناع ، ويطلب من كل من شارك في المؤامرة أن يقدم له يده المخضبة بالدم . فصافح كل واحد منهم ، وقد ناداه باسمه ونظر في عينيه ، وكان آخر من صافحه هو تريبونياس ، الذي لم يشترك في جريمة القتل فعلاً .. لكنه قام بدور مهم ، فقد استطاع أن يشتت انتباه مارك أنطوني ؛ ليمنعه من الدفاع عن قيصر .

يتراجع أنطوني بسرعة عن اتفاقه مع القتلة ، ولكنه يصرح لكاسيوس أن مصافحته لهم دليل على انضمامه إليهم .. اهتز أنطوني بعنف وتألم لرؤيته جثمان قيصر ، فطلب منهم السماح له بأن يحمل جثمان قيصر حتى ميدان السوق ليراه الناس ؛ فيوافق بروتس ، لكن كاسيوس يحذر بروتس ، جانبًا، أنه لا يدري ما يصنع . ويحذره من السماح لأنطوني برثاء قيصر في مأتمه .. وإلا سوف يتأثر الشعب بما سيقوله أنطوني .

ولكي يهدّئ من روعه ، وعده بروتس أن يلقي خطابه أولاً ، ثم يسمح لأنطوني بالحديث بعده ، على أن يعده أنطوني بذكر إيجابيات ومحاسن المتآمرين ، فيعده أنطوني بذلك ! فتركوه وحده مع جثمان قيصر ؛ ليقول له :

اغفر لي وسامحني يا من أصبحت جزءًا من الأرض المبللة بالدم، على مهادنتي وتهاوني مع هؤلاء القتلة والمتآمرين الجزارين . إنك بقايا أنبل إنسان عرفته الأرض .. فويلٌ لكل يد آثمة سعت لقتلك ! ثم يتحول حديثه إلى جثمان قيصر في لهجة بها مزيد من العنف والحدة ، فيقول له: سيحل الموت والدمار على كل ربوع روما .. وسوف يعتاد الناس القتل ، حتى إن الأمهات لن تحزن بعد ذلك لرؤية أجساد أبنائهن تمزق إربًا. وسوف تصرخ آلهة الانتقام (آتيه) : الدمار الدمار !

يدخل خادم أوكتافيوس ، وتقع عيناه على جثمان قيصر فيطلب منه أنطوني البقاء حتى يسمع خطابه في ميدان السوق ، وبعد ذلك يبلغ سيده أوكتافيوس بالأوضاع التي تجري في روما ، وما آلت إليه الأحداث ، ثم يساعد الخادم سيده أنطوني في حمل جثمان يوليوس قيصر .

ـ المشهد الثاني ـ

يطلب كاسيوس وبروتس من المواطنين أن يتبعوهما ليسمعوا منهما تفسيرًا للجريمة ، ثم قاما بتقسيم المواطنين إلى قسمين ، يخطب بروتس في قسم منهما ، بينما يخطب كاسيوس في القسم الآخر ؛ فيعلن بروتس أنه أحب قيصر أكثر من أي شخص في روما . لكنه قتل قيصر لأنه يحب روما أكثر من أي شخص آخر :

كما أحبني قيصر فإني الآن أبكيه ، أما وكان محظوظًا فقد سعدت لذلك . أما وكان قويًا فقد احترمته ، أما وكان طموحًا بلا حدود فقد ذبحته، ثم توجه للناس يسألهم : هل يريدون الموت له ؟ فيصيح الناس : « عاش بروتس ، عاش بروتس » . ثم بعد ذلك يطلب منهم الاستماع إلى مارك أنطوني وأن يسمحوا له بالانصراف .. وهكذا ترك أنطوني وحده ليلقي خطابه في الناس ، يستهل أنطوني خطابه بالعبارة الشهيرة : « أصدقائي الرومانيين ومواطني بلدي ، فقط أعيروني آذانكم» .. ثم يواصل خطابه ويستمر في مدح بروتس ويصفه بالرجل الشريف ، الذي قتل قيصر ليوقف طموحه ؛ لكن أنطوني يصف قيصر بأنه أشرف وأكرم الرجال . وبهذه الطريقة يكون أنطوني قد أوفى صديقه حقه في المديح، وأعلن في الوقت ذاته احترامه لمن قتلوه !.. بينما هو في الحقيقة يحرض الجماهير ضد بروتس وكاسيوس وبقية المتآمرين ؛ فكان من السهل استثارة الجماهير التي خلصت إلى أن قيصر لم يكن قط متجاوزًا حدود طموحه . وإن قتله كان جريمة لا تغتفر .

وبناء على طلب الجماهير وعدهم أنطوني بقراءة وصية قيصر ، ثم غادر مكانه ووقف بجوار جثمان قيصر المسجي ، وأظهر لهم مواقع الجروح والطعنات ، وأعلن لهم أسماء القتلة .. كان هذا كافيًا لانطلاق الجماهير في الشوارع في فوضى عارمة ، وهم يصيحون في غضب : « الانتقام .. ابحثوا عنهم .. اقتلوهم .. احرقوهم .. اذبحوهم » .. لكن أنطوني استطاع إيقافهم والحد من غلواء غضبهم ، وشرع يقرأ لهم وصية يوليوس قيصر ، المختومة بخاتمه الشخصي ، والتي أوصى فيها قيصر بمنح كل مواطن في روما مبلغًا وقدره خمسة وسبعين درخمة . كما وعد بأن يترك لهم حدائقه وبساتينه المثمرة الغنّاء على ذاك الجانب من نهر التيبر ، للاستمتاع بها والتريض والتنزه فيها هم وذووهم وذريتهم من بعدهم !

الفصل الرابع

ـ المشهد الأول ـ

دفع بروتس قواته إلى ساردیس (غرب تركيا الآن) وأقام معسكرًا لهم هناك . وكان قد أرسل رسولاً له إلى كاسيوس ؛ فعاد الرجل ليخبره أن كاسيوس ما عاد صديقًا أو حليفًا له ، فعلق بروتس على ذلك بقوله : « صديقًا دافئًا أصابه البرد والتجمد » ! في هذه اللحظة تصل قوات كاسيوس بقيادته شخصيًا . كان كاسيوس غاضبًا من بروتس واتهمه بأنه قد خدعه ، ولكن طلب بروتس منه أن يتحاورا داخل خيمته احترامًا لقدرهما ، وحتي لا يظن الجنود أنهما في عراك وحرب .

كان غضب كاسيوس من بروتس بسبب اتهام بروتس لأحد رجاله بحصوله على رشوة من السردينيين واعتقله ، وقد سبق أن أرسل له كاسيوس عديدًا من الرسل والرسائل يطلب منه إطلاق سراح الرجل . لكن بروتس رفض هذا المطلب . غضب أنطوني وثار لدفاع كاسيوس عن رجل تلقي الرشوة ، وذكّره بأنهم قتلوا قيصر لتهمة مثل تلك .

ينتهي الحوار بين الاثنين بتهديد كل منهما الآخر ، وازدياد قناعة كل منهما بقدرته على قيادة الجيش أكثر من الآخر . ومن الأسباب التي أدت إلى غضب بروتس ، رفض كاسيوس إرسال كميات من الذهب إليه لدفع رواتب الجنود ، وهنا يسحب كاسيوس سيفه ويسلمه إلى بروتس طالبًا منه أن يقتله إن كان يرى فيه إنسانًا سيئًا ، فيتراجع بروتس عن حدته وغضبه ، ويتعانق الرجلان في ودٍّ وصداقة .

شق الشاعر طريقه إلى الخيمة ، وطلب ألا يُترك الچنرالان كاسيوس وبروتس وحدهما حتى لا يظن أحد بوجود ضغينة بينهما .. ومع ذلك فقد استقبلاه بـودٍّ وصداقة ، ثـم قاما بإبعـاده بعـد ذلك . وفـي النهـايـة يخبر بروتس كاسـيوس أن زوجـته بورشـيا قد ماتت .. فيندهش كاسيوس لهذا الخبر السيئ ويسأل : كيف ماتت ؟ فيخبره أنه بعد هروبه من روما ، ثم قيام أنطوني وأوكتافيوس بإحكام سيطرتهما على روما ، حزنت كثيرًا لما آلت إليه الأحداث وانتحرت .

عندئذٍ يدخل تيتينيوس وميسالا ، فيغيران الموضوع . ويطلب بروتس مـن كاسيوس ألا يتحـدث عـن بـورشـيا وما حدث لها مرة أخرى.. يقرأ بروتس رسالة تلقاها ميسالا تحذر من أن قوات أنطوني وأوكتافيوس تزحف الآن نحوهما قادمة من اليونان ، ويخبره ميسالا أيضًا أن مائة من شيوخ مجلس الشيوخ قد لقوا حتفهم ، لكن بروتس يقول : إن الرسالة قد حددت عددهم سبعين فقط من بينهم الخطيب سيشرون ، ثم يسأله ميسالا عن أخبار بورشيا ، فيجيبه بروتس أنه لا يعرف أي شيء عنها ، ويطلب منه إن عرف هو أي شيء عنها أن يخبره فورًا . فيجيبه ميسالا : « يبدو أنها ماتت » ، فيتظاهر بروتس بالحزن الشديد وكأنها المرة الأولى التي يتلقى فيها هذا الخبر !

أخذ بروتس وكاسيوس يتشاوران حول البقاء في موقعهما في سارديس انتظارًا لوصول قوات أنطوني وأوكتافيوس ، أم الزحف نحوهما لملاقتهما في فيليبي . فضّل كاسيوس البقاء في انتظارهما للحفاظ على حيوية وقوة رجاله. بينما فضل بروتس التحرك بسرعة نحوهما لأنهما يكسبان كل يوم أراضي جديدة وجنودًا وأنصارًا. وأخيرًا يقتنع كاسيوس بوجهة نظر

بروتس ، ويغادر خيمته ليستريح استعدادًا للزحف نحو أنطوني صباح اليوم التالي .

يبقى بروتس متيقظًا مع خادمه ليسيوس ، ثم يستدعي اثنين من رجاله ، وهما : كلوديو وفاروس للنوم داخل خيمته ، لاحتمال إرسالهما في مهمة أثناء الليل . ويطلب بروتس من ليسيوس أن يغني له أغنية من عزفه على آلته الوترية ، ويبدأ بروتس في قراءة كتاب ، لكن فجأة يظهر له شبح يوليوس قيصر مما أدي إلى انطفاء الشموع . تساءل بروتس عمن دخل خيمته فيجيبه الشبح : « إنها روحك الشريرة يابروتس » . فيسأل بروتس: « ما الذي أتى بك ؟ » . فيجيب الشبح أنه سيزوره مرة أخري في فيليبي ، ويختفي الشبح . وسرعان ما يستيقظ بروتس ويأمر بإيقاظ كل من في خيمته ، ثم يأمر فاروس وكلوديو بالذهاب وإبلاغ كاسيوس أنه سيأمر قواته بالزحف فورًا !!

الفصل الخامس

- المشهد الأول -

نما إلى علم أنطوني وأوكتافيوس ، أن قوات بروتس وكاسيوس تزحف الآن لمواجهة قواتهما في فيلبيي ، ثم تصل إليهما رسالة تفيد أن قوات العدو أصبحت قريبة جدًا من فيلبيي ، وأن عليهما عمل أي شيء بسرعة . فيأمر أنطوني القائد أوكتافيوس بقيادة المعركة من الميسرة في ميدان القتال ؛ فيعارضه أوكتافيوس ويقرر الهجوم من ميمنة ميدان القتال . فيتضايق أنطوني جدًا ويسأله : لماذا تتخطى قواتي هكذا ؟ فيرد عليه أوكتافيوس : أنا لا أتخطي قواتك . لكني سأنفذ ما قلت لك !

يصـــل بروتس وكاسيوس على رأس قواتهما ، فيسأل أوكتافيوس القائد أنطوني : هل يأمر ببدء الزحف نحوهما ؟ فيجيبه أنطوني : لا . دعنا نحن نرد على هجومهما . تجتمع الجنرالات للتحاور ، الذي يتحول إلى سباب ولعنات ، ويرفضون أي محاولات للتهدئة . ويخرج بروتس وكاسيوس للاستعداد للمعركة على الفور . يستدعي كاسيوس ميسالا ، ويخبره أن المعركة الآتية تشبه تمامًا المعركة التي خسرها بـــومبي أمام قيصر .. ويضيـف أنـه رغـم عـــدم تطـيره ، إلا أنه يشعر بالتشاؤم خاصة ، بعد أن تم تبديل صقرين مصاحبين لقواته إلى غربان . ويسأل كاسيوس بروتس : ماذا يحدث إن خسرا هذه المعركة ؟ هل يُقدم على الانتحار ؟ في هذه الحالة يرفض بروتس تمامًا فكرة الانتحار ، ولكنه يرفض أيضًا أن يتم تقييده والسير به مهزومًا في شوارع روما وكأنه أسير حرب .. يودع الرجلان بعضهما بعضًا وداعًا مؤثرًا ، ويتجهان إلى خوض المعركة .

ـ المشهد الثاني ـ

تبدأ المعركة ، ويأمر بروتس ميسالا بتسليم بعض التكليفات المهمة إلى كاسيوس . إن بروتس يريده أن يسارع في زحفه ؛ حتى يتمكن من إلحاق الهزيمة بجناح أوكتافيوس الذي تأكد ضعف أدائه في المعركة .

ـ المشهد الثالث ـ

شعر كاسيوس بضيق شديد وخوف ؛ لأن رجاله يفرون من ميدان القتال .. وقد أخبره تيتنيوس ، أنه قتل حامل الراية في جيشه لأنه حاول الهرب ، ورفع هو الراية بنفسه . كما أخبره تيتنيوس أن بروتس قد تسرع في إلقاء أوامره ، وأن جنوده بدأوا بسرعة في نهب معسكر الأعداء ، بينما قامت قوات أنطوني بإحكام حصارها حول كاسيسوس. يصل بنداروس ليحذر كاسيوس بسرعة الهرب لأنهم أحرقوا جميع الخيام التي تقع على مسافات بعيدة . فيبادر كاسيوس بإرسال تيتنيوس إلى مجموعة من الجند للتأكد من استمرار ولائها لكاسيوس ، ثم أرسل بنداروس إلى ربوة عالية ليرى الموقف على طبيعته ؛ فيخبره بنداروس بعد ذلك أنه تم أسر تيتنيوس ، ثم تم إعدامه بعد ذلك . ينادي كاسيوس على بنداروس ليهبط إليه ويسلمه سيفه الذي قتل به قيصر ويطلب منه أن يقتله به ! فيستجيب له بنداروس ويقتله على الفور ويهرب ! يعود تيتنيوس وميسالا إلى المكان الذي قُتل فيه كاسيوس ويخبر تيتنيوس صديقه ميسالا أن بروتس هزم جيش أوكتافيوس، في الوقت الذي سحق فيه أنطوني جيش كاسيوس .

وفجأة تقع عيناه على جثمان كاسيوس فيعلن أن الرجل تلقى تقارير مغلوطة عن الأحوال في ميدان القتال . ويقوم تيتنيوس بإرسال ميسالا إلى

بروتس ليعرف منه حقيقة ما يجرى . ثم يستدير نحو جثمان كاسيوس ويقول : « مسكين لقد أسأت تقدير كل شيء ! » ، ثم يلتقط تيتينوس سيف كاسيوس ويقتل نفسه به ! يصل بروتس فيجد أمامه جثتين ترقدان فوق الأرض ، فيقول في دهشة : « ألا زلت قويًا يايوليوس قيصر !! » . بعد ذلك يفيق من صدمة خسارته للتحالف ويأمر جنوده بسرعة الاستعداد لخوض معركة ثانية ضد أنطوني .

- المشهد الرابع -

ظهر بروتس مرة أخرى وهو يقود قواته ، وأخذ يستحث جنوده على مواصلة القتال بقوة ، ثم يتركهم وهم في لهيب المعركة .. يخوض كانو معركة شرسة ، ثم يلقى مصرعه .. أما لوسيليوس فيتظاهر بأنه يوليوس ويتحدى الجنود الذين يأسرونه بسرعة ، ويرسلون إلى أنطوني يبشرونه بأنهم قد أسروا بروتس . فيسارع بالذهاب إليهم ، ويعرف أنهم لم يأسروا بروتس .. ولكي لا يتسبب في إحباط جنوده ، يقول لهم إن كانوا لم يأسروا بروتس فقد أسروا نبيلاً لا يقل أهمية عن بروتس . ويأمر رجاله بمواصلة القتال !

- المشهد الخامس -

يصل بروتس مصحوبًا بشرذمة من رجاله المهزومين ، فيطلب من صديقيه كليتوس ودارداينوس أن يقتلاه حتى لا يقع في الأسر ؛ فيغضبان ويبتعدان عنه ، ثم يطلب من صديقه فلومينوس أن يقتله بحق تلك الصداقة . لكن يقول له فلومينوس: ليس هذا مجال الصداقة يا سيدي اللورد !. يسمع بروتس نداء القتال فيأمر رجاله أن يهربوا بعيداً عنه ،

ويبقى ستراتو فقط معه . ويقنع ستراتو أن يمسك بالسيف بينما يرمي بروتس جسده على السيف ، فيفعل ستراتو ذلك ويلقي بروتس مصرعه .

يصل أنطوني وأوكتافيوس على رأس جيشهما ، ويتفقدان المكان فإذا بروتس ملقي ميتًا على الأرض بينما ستراتو في مكان قريب من جثمان بروتس .. يخبرهما ستراتو كيف مات بروتس ، فيرثيه أنطوني قائلاً : كان هذا الرجل أنبل نبلاء روما على الإطلاق . وكان الوحيد بين قتلة قيصر الذي كان يعرف جيدًا أنه يقوم بهذا العمل من أجل حماية الجمهورية. بينما كان الآخرون مجرد مرضى بشراهة الوصول إلى السلطة ، كانت حياته نبيلة، وعاش كريمًا وقد امتزجت عناصر الطبيعة فيه بما يجعل هذه العناصر تقف منتصبة وشامخة لتقول للدنيا في تحدّ « كان بروتس رجلاً » .

يأمر أوكتافيوس قيصر بنقل جثمان بروتس إلى خيمته ، كما يأمر بوقف القتال . ويقول : لنوفِ الرجل حقه من الاحترام .. وسيرقد جثمانه الليلة في خيمتي حتى يكرم مثواه مثل أي جندي حقيقي .. ويأمر أوكتافيوس الجيش بالخلود إلى الراحة ، ثم الاحتفال بذاك اليوم السعيد .

ويسدل الستار ، وقد انتصر يوليوس قيصر ، الذي استحق أن تحمل هذه المسرحية اسمه !



صدر من هذه السلسلة

روائع الأدب العالمي في كبسولة (1) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (2) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (3) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (4) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (5) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (6) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (7) عرض وتبسيط مختار السويفى

روائع الأدب العالمي في كبسولة (8) عرض وتبسيط حسين عيد

روائع الأدب العالمي في كبسولة (9) عرض وتبسيط حمدى عباس